الفصل التاسع

عودة الملكية

١٦٦٠ — ١٦٨٥

١ — الملك السعيد

دخل الملك شارل الثانى لندن فى اليوم التاسع والعشرين من مايو ١٦٦٠، أى بعد ثلاثين سنة كاملة من مولده، وسط مظاهر فرح وابتهاج، تفوق كل ماتعيه ذاكرة انجلترا من مثلها، يواكبه عشرون ألفا من حرس المدينة، ترفرف أعلامهم اعتزازا وزهوا، ويلوحون بأسيافهم وسط شوارع انتشرت فيها الأزهار، تتدلى فيها البسط المزدانة بالرسوم والصور، تدوى فيها الطبول والنواقيس وهتافات الترحيب، وتكتظ بنصف سكان المدينة. وكتب ايفلين: «وقفت على «الشاطىء» ورأيت هذا المشهد «وحمدت الله(١)». وهو مشهد كشف عن مزاج انجلترا، وخيبة البيوريتانيين واخفاقهم، فقد اقتضى خلع شارل الأول ست سنوات من الحروب والاضطرابات، على حين لم ترق نقطة دم واحدة فى سبيل عودة ابنه إلى العرش. وتقاطر الإنجليز على قصر هويتهول لتحية الملك، طوال هذا الصيف الذى غمرته البهجة. وقال أحد شهود العيان: «كان تلهف الرجال والنساء والأطفال على رؤية جلالته وتقبيل يديه، شديدا إلى حد أنه لم يكد يجد فسحة من الوقت لتناول الطعام لعدة أيام ... ولما كان الملك راغبا كل الرغبة فى ارضاء نفوسهم، فإنه لم يرد عنه أحدا، ولم يغلق الأبواب دون أى من الناس(٢)» وصرح بأنه يريد أن يكون كل شعبه سعيدا مثله.

ولو أن الملك أخذ أية مشكلة مأخذ الجد فى أيام الظفر هذه، لجلت

الشدائد والمصاعب التى ورثها شهر العسل بالسواد والقتام . فقد بلغ رصيد الخزانة ١١ جنيها و ٢٨ شلنا و ١٠ بنسات ، وكانت الحكومة مدينة بمليونى جنيه . ولم تسدد رواتب الجيش والبحرية لعدة سنوات ، وكانت انجلترا فى حرب مع أسبانيا . وأخذت ميناء دنكرك ، بشكل غير مستقر، لقاء مائة ألف جنيه سنويا ، وطالب بالتعويض عشرة آلاف من الفرسان الذين حاربوا من قبل فى صفوف شارل فسلبهم كرومول أموالهم . ثم أن عشرات الآلاف من الرجال الوطنيين قدموا ظلامات يلتمسون فيها إلحاقهم بالوظائف ذوات الرواتب الكبيرة والعمل اليسير ، وأجاب شارل على كل هذا بالإيجاب ، فى غير اكتراث ، تراوده الثقة فى أن يوفر البرلمان الاعتمادات .

وكان البرلمان ، بدوره ، سعيدا ، سيطرت عليه للوهلة الأولى ، نزعة الامتثال الموسوم بالابتهاج للملك العائد : إننا وأبناءنا من بعدنا نضع أنفسنا تحت تصرف جلالتكم ونلتزم بطاعتكم إلى الأبد(٣) « وقرر مجلس العموم « أن أعضاءه أنفسهم وشعب إنجلترا بأسره لن يبرأوا من الجريمة البشعة ، جريمة الثورة الأخيرة غير الطبيعية ، ولن ينجوا من العقوبات المترتبة على هذه الجريمة إلا إذا حظوا بصفح صاحب الجلالة وعفوه وبناء على ذلك قصد إليه البرلمان بكامل هيئته وجثوا أمام الملك الضاحك المبتهج ، لينالوا غفرانه(٤) . وأحس مجلس العموم بمزيد من الإثم لأنه اجتمع دون دعوة من الملك ، أو دون موافقته ، ولذلك أطلق المجلس على نفسه متواضعا اسم « اجتماع أو مؤتمر » ، حتى تطيب نفس الملك ، فيعلن أنه برلمان شرعى(٥) . وبعد انتهاء هذه المراسم ، ألغى البرلمان كل التشريعات التى أصدرها البرلمان ولم يكن قد وافق عليها شارل الأول ، ولكنه أكد على الامتيازات التى كان ذلك المجلس قد منحها للبرلمان ، بما فى ذلك سيادة البرلمان فى كل ما يتعلق بالضرائب ، وثبت شارل الثانى هذه الامتيازات . وشارك البرلمان للملك الانتصار الحاسم الذى أحرزته السلطة المدنية على

السلطة العسكرية ، فدفعت الرواتب المتأخرة للجيش الذي حكم انجلترا لمدة عقد من السنين ، وسرح الجنود البالغ عددهم أربعين ألفا ، وانصرفوا إلى بيوتهم .

وكان شارل قد وافق على الصفح عن كل أعدائه ، فيما عدا من يستثنيهم البرلمان من العفو العام . وقضى البرلمان عدة أسابيع فى جدل حول من يسلمهم إلى يد الجلاد ، ومن يبقى على حياتهم . وفى ٢٧ يولية ١٦٦٠ ، شخص الملك إلى مجلس اللوردات ، مناشدا إياهم أن يصدروا قرارا سريعا حكيما :

« أيها اللوردات ، إنكم إذا لم تشاركونى فى القضاء على الخوف الذى استولى على قلوب الناس وأرقهم ، ... فإنكم بذلك تحولون بينى وبين الوفاء بالوعد الذى قطعته على نفسى ، وأنا مقتنع بأنه لولاه لما كنا ، لا أنا ولا أنتم هنا الآن ... ولقد أدركت جيدا أن هناك أناسا لا يمكن أن يغفروا لأنفسهم ما اقترفوه ، ولا أن نغفر لهم نحن ذلك .. وإنى لأشكر لكم عدالتكم مع هؤلاء ـ القتلة المباشرون لوالدى ـ ولكنى ـ وسأكون صادقا معكم ـ لم أفكر قط فى استثناء أحد غيرهم من العفو العام . أن هذه الرحمة ، وهذا التسامح هما خير وسيلة تجعل الناس يستشعرون خالص الندم ، وتجعلهم رعايا صالحين مخلصين ، كما تجعلهم أصدقاء وجيرانا صالحين لكم أنتم(٦) » .

ورغب البرلمان فى التوسع فى عملية الانتقام ، ولكن شارل أصر على ألا يستثني من العفو إلا من وافقوا الحكم بإعدام والده(٧) . وكان ثلث هؤلاء قد فارقوا الحياة ، كما لاذ الثلث الثانى بالهروب ، وقبض على ٢٨ وحوكموا ، وحكم على ١٥ بالسجن مدى الحياة ، وشنق ١٣ ثم مزقوا أربا (١٣ ، ١٧ اكتوبر ١٦٦٠) . ويقول شاهد العيان بيبز : أن توماس هاريسون ، وهو أول من نفذ فيه الحكم ، « كان يبدو مرحا ، كما يمكن أن يفعل أى رجل فى مثل هذا الموقف » وتحدث بشجاعة من فوق المشنقة

قائلا أن دوره فى الاقتراع على إعدام شارل الأول أملاه الله عليه(٨) . ويضيف بيبز « وفى الحال مزق أربا ، وعرض رأسه وقلبه على الجمهور ، فتعالت صيحات الفرح(٩) » وفى ٨ ديسمبر أصدر البرلمان أمرا بإخراج جثث كرومول وأيرتون وجون برادشو من كنيسة وستمنستر ، وتعليقها على أعواد المشانق . وتم ذلك بالفعل فى ٣٠ يناير ١٦٦١ ، وكأنما كان هذا لونا من الاحتفال بذكرى موت شارل الأول ، وعرضت رؤوسهم طيلة يوم كامل فى أعلى قاعة وستمنستر (حيث اجتمع البرلمان) . ودفنت الأشلاء فى حفرة تحت مشنقة تيبرن ، كل أولئك جعل جون ايفلين يبتهج ويهلل « لحكم الله ، وهو حكم هائل تحار فيه الألباب(١٠) » . وثمة ضحية أخرى ، هارى فين ، الذى كان يوما محافظا لمستعمرة خليج ماساشوست ، فقد شنق فى ١٦٦٢ ، لأنه كان أداة فعالة فى تدبير إعدام سترافورد . وفى هذه القضية أغمضت رحمة الملك جفونها ، فقد وعد من قبل بالإبقاء على « سير هارى » الرجل الشعبى المحبوب ، ولكن جراءة السجين وشجاعته أثناء المحاكمة أوغرت صدر الملك فتحجر قلبه .

وفى ٢٩ ديسمبر ١٦٦٠ حل « المؤتمر » (البرلمان) نفسه ، حتى يمهد الطريق لانتخاب أعضاء أكثر تمثيلا للشعب . وفى غضون ذلك واجهت الحكومة أول مظاهرة عدائية تنازع فى شعبيتها فى العاصمة . أن هذه الحكومة لم تفعل شيئاً لاسكات الشيع الدينية التى ظلت تأمل فى نظام جمهورى : فكان المشيخيون وأنصار تجديد العماد والمستقلون وأصحاب مذهب الملكية الخامسة يخطبون ضد الملكية ، وتنبأوا بأن الإنتقام الإلهى سيحل بها سريعاً ، فيرسل الزلازل والدم والضفادع تنقض على بيوت موظفى الملك . وفى ٦ يناير ١٦٦١ ، وبينما كان الملك فى تورتسموث يودع أخته الحبيبة هنريتا وهى فى طريقها إلى فرنسا ، نادى بالتمرد والعصيان أحد المشتغلين بصناعة دنان النبيذ فى مجمع « لقديسى الملكية الخامسة » ، وعندئذ شلح سامعوه المهتاجون أنفسهم ، وأسرعوا إلى الشوارع يرددون أن المسيح

وحده هو الذي ينبغي أن يكون ملكا ، ويعملون القتل في كل من اعترض سبيلهم ، وعاشت المدينة في ظل الإرهاب طيلة نهارين وليلتين ، وانتشر «القديسون» في كل مكان يقتلون الناس في حماسة بالغة ، حتى تمكنت آخر الأمر فرقه صغيرة من الحراس كانت الحكومة الواثقة من نفسها تعتمد عليها في حفظ الأمن ، من تطويق للشاغبين وإقتيادهم إلى حبل المشنقة . وعاد شارل مسرعا إلى العاصمة ، ونظم فرقا جديدة من الشرطة للمحافظة على الأمن فيها .

وفي ٢٣ أبريل ، في يوم عيد سانت جورج راعي إنجلترا وحاميها ، توج الملك السعيد في كنيسة وستمنستر ، في كل مظاهر العظمة والجلال ، ذات القيمة الكبرى لدى الملوك والتي يعتز بهـا الشعب ، وحرص رجال الكنيسة الأنجليكانية التي استعادت مكانتها ، وهم يمسحون الملك الداعر بالزيت المقدس ، على التوكيد على تعهد الملك والتزامه بالدفاع عن العقيدة وعن الكنيسة . وفي مايو اجتمع « برلمان الفرسان » الذي سمي كذلك لأن غالبية أعضائه كانوا ملكيين أكثر من الملك ، متلهفين على الإنتقام من البيوريتانيين . ووجد شارل مشقة في أن يثنيهم عن الاسترسال في إعدام أعداء والده ، واسترد البرلمان ، من الوجهة النظرية ، كثيراً من الإمتيازات التي كان قد فقدها شارل الأول : من ذلك أنه لايصبح أي تشريع نافذ المفعول إلا بعد أن يوافق عليه المجلسان كلاهما ، والملك . وكانت للملك السلطة العليا على القوات الإنجليزية المسلحة في البر والبحر ، وأعاد البرلمان تنظيم مجلس اللوردات ، وأعاد إليه أساقفة الكنيسة الرسمية ، ولكنه رفض تجديد قاعة النجم أو محكمة اللجنة العليا وأبقى على حق التحقق في قانونية القبض على المسجونين بغير محاكمة ، وأعيدت إلى الفرسان أملاكهم التي صادرها كرومول من قبل ، مع تعويض ضئيل لمن اشتروها ، واسترجعت الأرستقراطية القديمة ثراءها ونفوذها . وانقلبت الأسرات التي جردت من أملاكها على ملوك آل ستيوارت ، وانضمت فيمابعد إلى صغار النبلاء وأبناء

الطبقات الوسطى ليشكلوا « الأحرار » ضد « المحافظين » .. إن شارل في النصف الأول من حكمه بلغ من الضعف والوهن حدا لم يستطع معه أن يفرض أى قدر من السلطة المطلقة ، من ذلك أنه أجاز « لبرلمان الفرسان » أن يستمر لمدة سبعة عشر عاما ، على الرغم من حقه الشرعى فى حله . أنه كان من الناحية العملية ملكا دستوريا . فإن النتيجة الجوهرية لثورة ١٦٤٢ — ١٦٤٩ ، وانتقال السلطة العليا من يد الملك إلى البرلمان ، ثم من مجلس اللوردات إلى مجلس العموم ، كل أولئك عاش بعد عودة الملكية ، على الرغم من قيام الملكية المطلقة من الوجهة النظرية .

وكان من حسن حظ البرلمان أن شارل كان عزوفا عن الحكم ، وكأنه بعد أربعة عشر عاما من التشرد والشقاء ، قد منحته العناية الآلهية الحق فى السعادة والهناءة ، وأدخل جنات عدن التى وعد بها المسلمون . وكان الملك أحيانا ينهمك بجد وكد فى شئون الدولة ، وقد بولغ فى إهماله لها(١١) . وقبيل نهاية حكمه دهشت الأمة إذ رأته يأخذ كل شيء على عاتقه ، وينصرف بكليته إلى إدارة شئون البلاد فى كفاية وعزيمة صادقة . ولكنه فى أعوام العسل كان قد فوض إلى إدوارد هايد ، الذى عينه أرل كلارندون فى ١٦٦١ ، إدارة دفة الحكم ، بل تقرير السياسة .

وتسربت شخصية الملك ، بشكل مؤثر إلى عادات العصر وأخلاقه وسياسته وغلب الطابع الفرنسى على أصله وتعليمه . فأمه فرنسية ، وأبوه ابن حفيدة مارى جيز أو اللورين ، أضف إلى هذا جدا اسكتلنديا ودنمركيا وإيطاليا ، ومن ذلك نجد خليطا صافيا ولكنه غير راسخ . أنه عاش من سن السادسة عشرة إلى سن الثلاثين فى القارة ، حيث تعلم الأساليب الفرنسية ثم رآها فى أبهى صورها فى أخته هنريتا آن . وكان شعره الأسود وجلده الأسمر يذكران بجدته الإيطالية مارى دى مديتشى ، وكان مزاجه لاتينيا مثل والدة جدته لأمه مارى ملكة اسكتلنده ، وربما ورث عن جده الغسقونى هنرى نافار ، شفتيه الشهوانيتين وعينيه البراقتين وأنفه المتطفل .

بل وربما ميله إلى النساء كذلك .

أما فيما يتعلق بالناحية الجنسية ، فقد كان شارل الثانى أخزى قادة زمانه ، وأسوأهم ، فإن تصرفاته كانت أسوأ مثال تحتذيه حاشيته والمجتمع الإنجليزى والمسرح بعد عودة الملكية ، فانفلت الزمام للفجور والخلاعة فى هذه كلها ، وأنا لنعرف أسماء ثلاث عشرة من خليلاته ، أنه وهو فى الثامنة عشرة ، حين جاء من هولنده إلى إنجلترا ليقاتل من أجل والده ، وجد فسحة من الوقت لينجب من « السمراء الجميلة الجريئة » لوسى وواتر ، ولدا كبر وترعرع تحت اسم جيمس سكوت ، اعترف شارل ببنوته فيما بعد ، وعينه دوق موغوث . ولحقت لوسى بشارل فى القارة ، وخدمته باخلاص ، والواضح أنه كان معها مساعدون آخرون لانعرف الآن أسماؤهم . وفور أن استقر به المقام فى القصر الملكى ، دعا بربارا بالمر لتسرى عنه همومه وتخفف من متاعبه . وكانت بربارا هذه — مثل بربارا فلبيرز — قد أقامت لندن وأقعدتها بجمالها . وفى سن الثامنة عشرة (١٦٥٩) تزوجت من روجر بالمر الذى أصبح أرل كاسلمين . وفى سن التاسعة عشرة وجدت طريقها إلى مخدع الملك ، ومن ثم سيطرت على روحه الوادعة ، إلى حد أنه خصص لها جناحا فى قصر هويتهول ، وأنفق عليها أموالا طائلة وأجاز لها بيع المناصب السياسية ، والتحكم فى مصائر الوزراء . وولدت له ثلاثة أبناء وابنتين أعترف ببنوتهم جميعاً ، وساورته الشكوك على أية حال ، لأنها وسط حبها الشديد للملك ، لم تتورع عن الاتصال برجال آخرين[١٢] ، وازدادت نفوذها بازدياد علاقاتها غير المشروعة . وفى ١٦٦٣ — أعلنت تحولها إلى الكاثوليكية . والتمس أقاربها من الملك أن يثنيها عن عزمها ، فأجابهم بأنه لم يتدخل قط فى « نفوس » السيدات[١٣] .

وفى ١٦٦١ فكر شارل فى أنه قد حان الوقت للزواج ، ومن بين المرشحات اختار كاترين براجنزا ابنة جون الرابع ملك البرتغال التى قدمت إليه مع صداق هيأته العناية الالهية ليفى بحاجات ملك مبذر ودولة تاجرة :

٥٠٠,٠٠٠ جنيه نقداً ، وميناء طنجة ، وجزيرة (والمدينة الصغيرة فيما بعد) بمباى ، وحرية الاتجار مع كل ممتلكات البرتغال فى آسيا وأمريكا وتعهدت انجلترا فى مقابل ذلك ، بمساعدة البرتغال فى المحافظة على استقلالها ولما وصلت الأميرة العروس الغالية إلى بورتسموث كان شارل فى استقبالها للترحيب بها ، وتزوجا فى ٢١ مايو وفقاً للطقوس الكاثوليكية أولا ثم الأنجليكانية ، وكتب شارل إلى والدتها يقول أنه « أسعد إنسان فى العالم » وأحسن معاملة حاشيتها من السيدات ذوات « التنورات » الواسعة المطوقة ، ومن الرهبان الوقورين ، ووقعت الأميرة فى غرامه لأول نظرة ، وسارت الأمور سيراً حسناً لعدة أسابيع ، ولكن فى يوليه وضعت كاسلمين ولداً شهد شارل تعميده على أنه « العراب » (أبوه فى العماد) — وتلك مناسبة أخرى يستخدم فيها إسم الله عبثاً ولغواً . ومذ هجرت باربارا زوجها ، أصبحت الآن تعتمد كل الاعتماد على الملك ، وتوسلت إليه ألا يتخلى عنها ، فاستسلم لرجائها ، وسرعان ما استأنف علاقته بها ، وفى إخلاص موصوم بأشد الخسة والعار . ونسى الملك قواعد السلوك القويمة المألوفة ، فقدم باربارا علانية إلى زوجته . فنزفت أنف كاترين دما وانتابتها إغماءة ، من فرط الشعور بالمهانة والإذلال ، وحملت إلى خارج القاعة وبناء على إلحاح من الملك ، أوضح لها كلاريندون أن عملية الزنى امتياز ملكى معترف به للملوك فى أعرق أسرات أوربا . وبمرور الوقت كيفت الملكة نفسها مع أساليب زوجها الشرقية ، ولكنها كانت تزوره ذات يوم ، فوقعت عيناها على « شبشب » صغير بجوار سريره ، فانسحبت فى رفق وتلطف « حتى لا تصاب الحمقاء الجميلة الصغيرة « المختفية وراء الستائر بالبرد(١٤) ، وكانت هذه المرة الممثلة — هول دافيز . هـذا فى الوقت الذى حاولت فيه كاترين كثيراً أن تنجب لشارل طفلا ، ولكنها — مثل كاترين أراجون مع ملك سابق — أجهضت عدة مرات . وفى ١٦٧٠ أقر البرلمان قانوناً بالتوسع فى أحكام الطلاق . وأشار بعض رجال البلاط المتلهفين على وريث بروتستانتى ، على

شارل بأن يطلق كاترين ، ولكنه أبى ، حيث كان قد عرف آنذاك كيف يحبها حباً عميقاً على طريقته الخاصة .

ويصف بيبز البلاط في ٢٧ يوليه ١٦٦٧ فيقول :

« يقص على فن Fenn أن الملك وسيدتى كاسلمين قد حدثت بينهما جفوة شديدة ، وأنها ستفارقه ، ولكن بين جنبيها جنين ، إن الملك لابد معترف ببنوته ، وإلا فانها ستحمل الوليد إلى قصر هويتهول ، وتهشم رأسه أمام عيني الملك . ثم يضيف أن الملك والحاشية لم يكونوا فى أى زمان فى العالم بأسره أسوأ منهم الآن ، بسبب اللهو والدعارة والفجور والسكر والعربدة ، وغيرها من أحط الرذائل البغيضة ، مما لم ير العالم مثيلالها ، وهذا أمر يجر الهلاك والدمار على الجميع ، لا محالة[١٥] » .

وضاق شارل ذرعا بغضبات كاسلمين ، وفى إحدى زياراته الأخيرة لها ، فاجأ عندها جون تشرشل ـ دوق مالبرو فيما بعد ـ ، الذى قفز من النافذة حتى يتجنب لقاء الملك[١٦] ، كما روى الأسقف بيرنت . على أن شارل خلع على كاسلمين لقب دوقة كليفلند ، ورتب لها مخصصات من الأموال العامة مدى الحياة .

وقد يشوقنا أن نقص كيف أن امرأة واحدة بعينها خيبت علانية أمل الملك المغرور المختال وصدته : تلك هى فرانسيس ستيوارت التى قيل إنها ربما كانت أجمل وجه وقعت عليه العين[١٧] ويقول أنطونى هاملتون « يندر أن يتيسر العثور على امرأة أقل ذكاء أو أكثر جمالا[١٨] » . وظل الملك يلحف فى الوصول إليها حتى بعد زواجها من دوق وتشموند ويصف بيبز الملك وهو يجدف وحده فى الليل إلى قصر سومرست ، « وهناك حيث وجد باب الحديقة موصدا تسلق الجدران ليزور هذه المرأة وتلك فضيحة مخزية فظيعة[١٩] » .

وفى ١٦٦٨ رأى شارل « نل جوين » وهى تمثل فى « مسرح دروری لين » ، وهى التى نشأت فى فقر مدقع ، وكانت تسلى رواد الحانة بأغنياتها ،

وتبيع البرتقال في المسرح ، وتقوم بالأدوار الصغرى أو الأدوار الرئيسية في الروايات الهزلية ، واحتفظت طوال عملها ، تلقائياً بروح طيبة وارادة طيبة ، مما سحر لب الملك الذى لا يبالى بشيء ، والذى سئم الملذات ، ولم تقم الممثلة أية عقبات فى سبيل أن تكون عشيقة لجلالته . واستنزفت مبالغ طائلة من كيسه الذى يشكو خلو الوفاض ، ولكنها أنفقت القدر الأكبر منها فى أعمال البر والإحسان . ولكن سرعان ما كان عليها أن تنافس امرأة مغوية خطرة موفدة من فرنسا (١٦٧١) لتثبت شارل على العقيدة الكاثوليكية والتقاليد الفرنسية ؛ تلك هى لويز كيرووال التى قلدت نل مظاهرها الارستقراطية تقليداً ساخراً شيطانياً . وكل العالم يعرف ، كيف أنه ، حيث حسب سكان لندن خطأً أن نل هى منافستها الكاثوليكية ، فسخروا منها ، أخرجت رأسها الصغير من نافذة العربة وصاحت بهم « صه أيها الشعب الطيب ، أنا البغى البروتستانتية(٢٠) » واستمرت تحظى بعطف شارل إلى آخر حياته ، ولم تبرح مخيلته حتى فى ساعة احتضاره . أما كيرووال التى عينت على الفور دوقة بورتسموث ، فقد أثارت حفيظة لندن ، حيث نظروا إليها هناك على أنها عميلة فرنسية باهظة التكاليف تبتز من الملك فى كل عام ٤٠ ألف جنيه ، لتقتنى المجوهرات وتعيش فى ترف باذخ أهاج معدة جون ايفلين(٢١) وتقلص ظل سلطانها فى ١٦٧٦ حين اكتشف شارل هورتنس مانسينى ابنة شقيق الكاردينال مازاران المرحة المفعمة بالحيوية والنشاط .

وكان لشارل سقطات أخرى : انه فى أيام شبابه التعس فقد كل الثقة فى البشر ، وحكم على الرجال والنساء جميعاً بأنهم كما وصفهم « لاروشفوكول » ومن ثم فإنه قلما استطاع أن يكون مخلصاً لأحد — اللهم إلا أخته — وضيع نفسه فى أهوائه وغرامياته ، ولم تكن ثمة ود خالص متيم يلقى ضياء حقيقياً على البريق الأجوف فى حياته . وباع بلاده بنفس اليسر الذى اشترى به النساء . وضرب لحاشيته أكبر المثل فى المقامرة بمبالغ طائلة . وعلى الرغم

من الجمال الطائش فى سلوكه وعاداته ، فانه أبدى فى بعض الأحيان افتقاره إلى الرقة والكياسة اللتين كان من العسير التماسهما عند والده . من ذلك ، على سبيل المثال ، أنه لفت نظر جرامونت إلى أن خدمه يؤدون عملهم وهم راكعون(٢٢) . ولم يكن كثير الادمان على الخمر فى أغلب الأحيان ، ولكنه أدمن بشكل مخيف لعدة أيام عقب صدور قانون ضد تعاطى المسكرات(٢٣) . وكان عادة يتقبل النقد بصدر رحب ، ولكن حين جاوز سيرجون كوفنترى حده ، وتساءل فى البرلمان علانية « هل يجد الملك متعته بين الرجال أو بين النساء ؟ » . أمر شارل رجال حرسه أن « يجعلوا منه عبرة » فكمنوا له وهاجموه وهشموا أنفه(٢٤).

على أن فئة قليلة من الناس كانوا لا يملكون إلا أن يحبوه ، ومنذ شباب هنرى الثامن لم يوجد فى انجلترا ملك فى مثل شعبية شارل بين حاشيته ، وكانت حيويته الجسمية تبعث على الرضا والسرور ، ولم يكن به شح أو بخل ، بل كان يرعى الحقوق ، عطوفاً كريماً . فانه ، بعد أن ينقد رجال حاشيته رواتبهم ، كان يجد الوسيلة للبر والإحسان والصدقات . وجعل من المتنزه الخاص به مرتعاً لمختلف الحيوانات ، ولم يلحقها أى أذى . وكانت كلبته المدللة تنام ، ويفترسها رفيقها وتلد وترضع صغارها فى حجرة نوم الملك(٢٥) . وكان شارل بعيداً عن التكلف ، أنيساً ، حلو المعاشرة ، يسهل الوصول إليه أو التحدث معه ، سرعان ما يهدىء من روع محدثيه ويطمئن بالهم . وذكر كل الذين تحدثوا عن شارل — فيما عدا كوفنترى ، أنه « ملك ودود طلق المحيا(٢٦) » ، وعده جرامونت « من ألطف الرجال وأرقهم وأكثرهم وداعة(٢٧) » . وقال عنه أوبرى « إنه نموذج فذ فى المجامله(٢٨) » وكان شارل قد صقل عاداته وسلوكه فى فرنسا ، وكان ، مثل لويس الرابع عشر يرفع قبعته لأية سيدة ، حتى ولو كانت من أحط الطبقات وكان يفضل شعبه بكثير فى التسامح مع أية آراء أو مذاهب دينية معارضة إلى حد أنه شرب نخب خصومه السياسيين ، وسر كثيراً بالهجاء حتى

ولو كان موجها إلى شخصه . وكان حسن التقدير فيه ، مبعث ابتهاج لدى حاشيته . ووصفه بيبز بأنه كان يقود الحلقة فى رقصة ريفية قديمة cuckoldo All Awry . وما كان يقطع عليه مرحه ولهوه الصاخب — لفترات قصار ، إلا أنباء الطاعون أو الحريق أو الافلاس أو الحرب .

ولم يكن الملك شارل الثانى عميق التفكير ، ولكنه لم يتماق بتوافه الأمور إلى حد كبير ، وتخلص يوما من رجل زعم أنه يتنبأ بالطالع ، بأن أخذه إلى سباق الخيل ، ولحظ أنه يخسر ثلاثة أشواط متوالية . وأولع ولعا شديدا بالعلوم ، وأجرى التجارب ، وأصدر براءة تشكيل « الجمعية الملكية » وأغدق عليها الهبات والمنح ، وشهد كثيراً من اجتماعاتها . ولم يهتم كثيراً بالأدب ، ولكنه أولى الفنون عناية كبيرة ، واعتز برافائيل وتيشيان وهولبين وجمع أعمالهم . وتجلى فى حديثه كثير من الحيوية والتنوع اللذين تميزت بهما الجماعات المثقفة فى فرنسا . فتحدث جيدا عن الشعر مع دريدن ، وعن الموسيقى مع بورسل (الملحن) ، وعن هندسة العمارة مع رن . وكان حاميا ونصيراً حسن التمييز فى كل هذه المجالات ، ولابد أنه كان ثمة قدر كبير من مناقب ومآثر حميدة محببة تحلى بها رجل قالت عنه أخته وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة « إنى أحببته أكثر من حبى للحياة نفسها . وليس ثمة شيء آسف عليه فى موتى ، إلا إنى أفارقه »(٢٩) .

٢ - مرجل الدين

هل تمسك الملك بأية عقيدة دينية ؟ أن حياته من هذه الناحية توحى بنفس النزعة التى سادت كثيراً من الفرنسيين المعاصرين الذين عاشوا ملحدين وماتوا كاثوليكيين . ويبدو أن هذا يسر الفوز بمتاع الدنيا والآخرة معا ، كما أنه كان أفضل كثيرا من « رهان » بسكال . ويقول بيرنت « أن إحساسه الدينى كان ضعيفا ، إلى درجة أنه لم يكثر من التظاهر بالنفاق ولكن بسلوكه الموصوم بالتهاون فى الصلوات وفى الأسرار المقدسة ، كان لأى

إنسان يراه أن يدرك كيف وقر فى ذهن الملك أنه لا علاقة له بهـذه الأمور[٣٠] » . وقال أحد الوعاظ مرة لنبيل غلبه النعاس وهو جالس بين جماعة المصلين « سيدى ، سيدى : إنك تغط فى نومك بصوت عال ، وقد توقظ الملك[٣١] » : وقال عنه سانت إيفرموند الذى كان يعرفه حق المعرفة أنه كان « ربوبيا[٣٢] » ـ وهو الذى يؤمن بوجود كائن أسمى غير مجسم تقريباً ، ويفسر بقية المذاهب الدينية بأنها شعر شعبى . واتفق أرل بـكنجهام ومركيز هاليفاكسى مع سانت إيفرموند فى هذا الرأى[٣٣] ويروى بيرنت « قال لى الملك ذات مرة ، أنه ليس ملحدا ، ولـكنه لا يظن أن الله يعذب الإنسان لأخذه بشىء من أسباب المتعة واللذة عرضا أو خطأ[٣٤] » . ورحب الملك بصداقة هوبز الذى يدين بالمادية ، وتولى حمايته من رجال اللاهوت الذين طالبوا بتقديمه للقضاء بتهمة الهرطقة . ويرى فولتير أن « لامبالاة الملك المطلقة » بـكل الصراعات الدينية التى تفرق بين الناس عادة ، أسهمت بدرجة غير يسيرة ، فى حكمه السلمى[٣٥] .

ويحتمل أن شارل كان متشككا ، مع شىء من الإنعطاف نحـو الـكثلـكة ، بمعنى أنه كان يشك فى اللاهوتيات ، ويؤثر الـكاثوليكية ، لطقوسها النابضة بالحياة ، وتعلقها بالفنون ، وتساهلها مع الجسد ، وتأييدها للملـكية . وربما غاب عن ذاكرته أن العصبة الـكاثوليكية وبعض الآباء اليسوعيين قد أقروا من قبل قتل الملك . ولـكنه تذكر أن الـكاثوليك الإنجليز دافعوا عن أبيه ، وأن ثلث النبلاء الذين ماتوا فى سبيل النضال عن شارل الأول كانوا من الـكاثوليك[٣٦] ، وأن الـكاثوليك الأيرلنديين بقوا على ولائهم لأسرة ستيوارت ، وأن حكومة كاثوليكية كانت تمد له يد العون فى منفاه الطويل الأمد — إن روح التعاطف التى تملـكته بصفة عامة ، جنحت به إلى الرغبة فى التخفيف بعض الشىء من القوانين التى صدرت فى انجلترا ضد الـكاثوليك ، وهى فى تقدير « هللام » قوانين « صارمة غاية الصرامة ، بل هى فى بعض الأحيان ، دموية أو متعطشه للدم[٣٧] . ولم

يشارك الملك البروتستانت الإنجليز فيما علق بأذهانهم من ذكرى « مؤامرة البارود « ١٦٠ » » أو الخوف من محاكم التفتيش أو البابا فى رومه . ولم يغضب لالتزام أخيه العلنى بالمذهب الكاثوليكى — والمفروض أنه وريث العرش . وقد يجوز لنا أن نحكم ، من تحوله إلى الكثلكة وهو على فراش الموت ، أنه كان من الجائز أن يعترف هو أيضا بها ، لو أن الاعتراف بها كان أمرا عمليا من الوجهة السياسية .

وهكذا فإن شارل ، وهو السياسى اللطيف الودود ، قبل الكنيسة الأنجليكانية ودعمها إنها قد دانت بالولاء لوالده ، وفنيت فى الدفاع عنه ، وعانت ما عانت فى أيام كرومول ، وكافحت كفاحا شديدا فى سبيل عودة الملكية . واعتبر شارل أنه من القضايا المسلم بها أن تكون هناك عقيدة دينيه تحظى بموافقة الدولة ومعونتها ، على أنها وسيلة لنشر التعاليم وإقرار النظام الاجتماعى . انه ، أساسا ، كانت تزعجه البيوريتانية ، فوق أنها أتيحت لها من قبل فرصة الحكم ، فكانت صارمة بغيضة إلى حد بالغ . ولم ينس قط أن البرسبتيريانز سجنوا أباه وأن البيوريتانز اطاحوا برأسه ، وأنه هو نفسه أرغم على قبول مذهبهم والاعتذار عن أخطاء آبائه . ووقع القانون الذى أصدره « البرلمان المؤتمر » ، بإعادة الكهنة الأنجليكانيين إلى أبرشياتهم ، التى كانت « الجمهورية » قد جردتهم منها ، وكان وجه العدالة والإنصاف واضح فى هذا القانون . وعلى الرغم من ذلك ، كان قد وعد « بالحرية لذوى الضمائر الواهنة » ، وألا يضار أى إنسان بسبب الخلافات الدينية مادامت مسالمة . واقترح شارل فى أكتوبر ١٦٦٠ تسامحا شاملا مع كل الفرق المسيحية ، بل كذلك تخفيف القوانين المعاديه للكاثوليكية . ولكن البرسبتيريانز والبيوريتانز الذين خشوا مغبة هذا التراخى ، انضموا إلى الأنجليكانيين فى رفض هـذا المشروع . ورغبة فى المصالحة بين البرسبتيريانز والأنجليكانيين عرض الملك طقوسا تكون حلا وسطا بين الطائفتين ونظاما أسقفيا محدوداً يتولى بمقتضاه بعض المشايخ المنتخبين

تقديم العون والمشورة للأساقفة . ولكن البرلمان عارض هذه الفكرة . وأبلغ « مؤتمر سافوى » المكون من اثنى عشر أسقفا ، ومثلهم من المشايخ — أبلغ الملك « أنهم لم يستطيعوا الوصول إلى اتفاق(٣٨) » .

وتلك فرصة ضيعت، لأن البرلمان الجديد كان أنجليكانيا بأغلبية ساحقة. فنكأ الجراح القديمة بإعادة النظام الأسقفي في اسكتلنده وأيرلنده ، وأعاد المحاكم الكنسية المعاقبة على « التجديف » ، والتخلف عن دفع العشور الكنيسة الأنجليكانية ، وجعل « كتاب الصلوات العامة الانجليكانى » إلزاميا على جميع الإنجليز ، وبمقتضى «قانون التوحيد» (٢٠ نوفمبر ١٦٦١) حرمت المناصب العامة على كل الأشخاص الذين لم يتلقوا الأسرار المقدسة وفقا للطقوس الأنجليكانية قبل الانتخابات ، وبمقتضى « مرسوم التنسيق (١٩ مايو ١٦٦٢) طلب إلى كل رجال الدين والمعلمين أن يقسموا اليمين على ألا يقاوموا الملك ، وأن يعلنوا موافقتهم التامة على كتاب الصلوات العامة. وكان على رجال الدين الذين رفضوا هذه الشروط أن يتخلوا عن مراكزهم فى موعد غايته ٢٤ أغسطس ورفضها نحو ١٢٠٠ منهم فطردوا . وهؤلاء بالإضافة إلى ١٨٠٠ آخرين أخرجوا عند عودة الأنجليكانيين ، انضموا جميعا ، مع مجموعة كبيرة من الجامع ، إلى العدد المتزايد من « الشيع » أو « المنشقين » ، الذين أرغموا أولى الأمر فى النهاية على أصدار قانون التسامح ١٦٨٩ .

وحاول شارل أن يعدل من « مرسوم التنسيق » فطلب من البرلمان أن يستثنى من العزل أولئك القساوسة الذين لم يعترضوا إلا على ارتداء اللباس الكهنوتى الأبيض ، أو استخدام الصليب فى التعميد ، فوافق اللوردات ورفض النواب. وسعى الملك للتخفيف من أثر الطعنة ، بتأجيل تنفيذ المرسوم لمدة ثلاثة أشهر ، ولكن أحبطت هذه للساعى كذلك . فأصدر فى ٢٦ ديسمبر ١٦٦٢ بيانا أعلن فيه عن عزمه على أن يستثنى من العقوبات التى نص عليها القانون الأشخاص المسالمين الذين أبت عليهم ضمائرهم

أداء القسم المطلوب ، ولكن البرلمان ، إرتاب فى هذا الاجراء ورفضه ، باعتبار أنه ينطوى ضمنا على سلطة الملك فى الاعفاء من إطاعة القوانين . وعبر الملك عن مشاعره بالإفراج عن الكويكرز المستقلين (٢٢ أغسطس ١٦٦٢) وبالتوكيد على التسامح الدينى فى المواثيق التى منحها لجزيرة رود وكارولينا ، وفى التعليمات التى وجهها إلى حاكمى جمايكا وفرجينيا .

وأحس البرلمان أنه ليس ثمة متسع لهذا التسامح فى انجلترا . ولكى يمنع اجتماعات الكويكرز السرية للعبادة ، قال إنها تضم أكثر من خمسة أشخاص بالإضافة إلى أفراد البيت ، وحكم ١٦٦٢ على كل شخص يحضرها بدفع غرامة قدرها خمسة جنيهات ، أو بالحبس لمدة ثلاثة أشهر ، للمخالفة الأولى ، ومضاعفة العقوبة (١٠ جنيهات غرامة أو ستة أشهر فى السجن) للثانية ، والنفى إلى مستعمرات المجرمين ، للثالثة ، أما المخالفون الذين يعجزون عن دفع نفقات إنتقالهم إلى المستعمرات فكان عليهم أن يخدموا لمدة خمسة سنوات ، مما لا يعقود عمل خاصة . أما المدانون أو المخالفون المرحلون الذين يهربون أو يعودون إلى إنجلترا قبل انقضاء ، المدة المحكوم بها ، فتكون عقوبتهم الإعدام ، وفى ١٦٦٤ امتدت هذه الإجراءات إلى البرسبتيريانز والمستقلين . وحظر « قانون الأميال الخمسة » (١٦٦٥) على القساوسة الذين امتنعوا على حلف اليمين ، أن يقيموا فى نطاق خمسة أميال فى أية مدينة ذات مجلس بلدى ، أو يقوموا بالتدريس ، فى أية مدرسة خاصة أو عامة . وأطلق على هذه القوانين « تشريع كلارندون » لأن الذى فرضها هو كبير وزراء الملك ضد إرادة الملك أو رغباته الصريحة ، وقبل شارل هذه التشريعات الصارمة لأنه كان يناشد البرلمان إقرار الاعتمادات التى طلبها . ولكنه لم يغفر قط لكلارندون ، كما فقد ثقته فى الأساقفة وقل إحترامه لهم ، لأنهم ما لبثوا أن اعيدوا حتى بدأوا ينتقمون أشد الإنتقام ، ويقبضون أيديهم عن البر والإحسان . وانتهى شارل إلى « أن المشيخية ليست مذهبا يليق بالرجل الماجد المهذب ، وأن الأنجليكانية ليست

مذهبا يليق بالرجل المسيحى(٣٩) » .

وإذ أدركت الكنيسة الأنجليكانية اعتمادها على الملكية ، فإنها أكدت من جديد ، ويشكل أكثر إيجابية عن ذى قبل ، « حق الملك الإلهى » ، والإثم العظيم الذى يؤدى إلى الهلاك ، فى مناهضة حكومة ملكية قائمة . وفى ١٦٨٠ نشر كتاب سير روبرت فلمر « سلطة الملوك الطبيعيه المعترف بها » بعد موت المؤلف بسبعه وعشرين عاما ، وأصبح الدفاع القياسى عن النظرية . وفى كتاب أكسفورد « القضاء والقانون » (١٦٨٣) أعلن زعماء الكنيسه الأنجليكانيه أنه « زيف وتحريض على الفتنه ، بل هو هرطقه وتجديف » ومن ثم جريمه عقوبتها الإعدام » « أن يتمسك امرؤ » بأن السلطه مستمدة من الشعب ، وأن الحكام الشرعيين يفقدون الحق فى الحكم إذا أصبحوا طغاة ، وأن الملك ليس له إلا حق مناظر لحق السلطتين الأخرين : مجلس اللوردات ومجلس العموم . وأضاف الكتاب « أن الطاعه العمياء هى سمه كنيسه إنجلترا وخصيصتها(٤٠) » . وتلك كانت نظريه تثير القلق والمتاعب ، عندما حاول جيمس الثانى ، بعد عامين من هذا التاريخ ، أن يحول إنجلترا إلى الكاثوليكيه .

ان الكنيسه الأنجليكانيه ، التى استعادت مكانتها ، على الرغم من تعصبها ، تجلت فيها صفات تدعو إلى الإعجاب ، فقد أباحت آفاقا رحبه للتفكير اللاهوتى بين أعضائها ، ابتداء من « الودبين » (الذين عرفوا فيما بعد بأنهم الذين يؤكدون على الطقوس التقليديه High Churchmen) الذين اقتربوا من المذهب والطقوس الكاثوليكيه ، إلى « المتحررين المتسامحين » (الذين عرفوا فيما بعد باسم ذوى الأفق الواسع — Brood Charchmen) وهم الذين جنحوا إلى لاهوت متحرر ، وأكدوا على الجانب الأخلاقى ، لا على الجانب المذهبى أو العقائدى ، فى المسيحيه ، ووقفوا فى وجه الاضطهاد ، وسعوا إلى المصالحه وتسويه الخلاف بين البيوريتانيين والمشيخيين والأنجليكانيين . وساعد شارل هؤلاء المتحررين

المتسامحين » وقدر فيهم الإيجاز النسبي فى عظاتهم[٤١] . وكان أعظم هؤلاء المتحررين ، جون تللوتسون ، الذى عينه شارل قسيس القصر ، ثم عينه وليم الثالث رئيس أساقفه كنتربرى (١٦٩١) . وكان رجلا « راجح العقل حلو الشمائل[٤٢] » ، ناهض « البابويه » والإلحاد والاضطهاد بنفس القدر من الحماسه والغيرة ، وتجاسر فبنى المسيحيه على العقل . وكان يقول « لسنا فى حاجه إلى دليل على خطأ إنسان أقوى من أن نسمعه يتهم العقل ويحط من قيمته ، ومن ثم يرى أن العقل ضده[٤٣] » ومال صغار رجال الدين الأنجليكانيين « الكهنه » إلى أن يكون الخدم الروحيين للوردات المحليين ، بل حتى لبعض مالكى الأرض ، حتى قاربوا أن ينحدروا إلى وضع العامه[*] . ولكن فى المدن والمناصب الكنسية ذوات الرواتب الأكبر ، اشتهر كثير من رجال الدين الأنجليكانيين بسعه الإطلاع والمقدرة الأدبيه حتى أنهم أخرجوا فيما بعد بعضا من أفضل كتب التاريخ الرسمى فى أوربا . وبصفه عامه سادت روح من الاعتدال المذهبي فى الكنيسه الأنجليكانيه ، أكثر منها بين المنشقين الذين زاد الاضطهاد من تعصبهم لمذهبهم وتزمتهم .

ولم يعان البيوريتانيون آنذاك من الاضطهاد السياسى وحده ، بل إنهم كذلك كانوا موضع سخريه وازدراء من أولئك الذين أحسوا بالضيق والإنزعاج أيام الحكم البيوريتانى بسبب أخلاقياتهم الهينه اللينه الخاليه من التزمت . ولكن البيوريتانيين احتملوا فى جلد وشجاعه دوران عجلة الزمن . وهاجر بعضهم إلى أمريكا ، وأدى كثير منهم القسم المطلوب . وكان ريتشارد باكستر ألمع شخصية بينهم فى ذاك العصر ، وكان رجلا ذا إتجاه معقول ، مستعدا لقبول أيه تسويه لا تخل بلاهوته المتقدم . فإنه على الرغم من إخلاصه الشديد للمذهب البيوريتانى حتى النهايه ، استنكر إعدام شارل

(*) هناك وصف مبالغ فيه لهذا الموضوع فى كتاب ماكولى « تاريخ انجلترا » (١ : ٢٥٢ — ٢٥٥) أنظر لكى « تاريخ انجلترا فى القرن الثامن عشر » (٢ : ٧٥ — ٧٩) .

الأول ، وحكم كرومول حكما استبداديا مطلقا ، وحبذ عودة الملكية . ومنع بعد ١٦٦٢ من الوعظ ، واعتقل مرارا وتكرارا لمخالفته أمر الحظر. وكان من أكثر البيوريتانيين استنارة ، ولكنه مع ذلك استحسن أحراق السحرة فى سالم ومساشوست ، وفكر فى ربه على أساس جعل « مولوخ » (اله سامى كان يعبد عن طريق تضحيه الأطفال على مذبحه) بجانبه ودودا لطيفا من هم الذين كتب لهم الخلاص ؟ ويجيب باكستر : «إنهم فئه قليلة من البشر الضائع ،قدر لهم الله منذ الأزل هذه الراحه(٤٤). وأكد فى عظاته على عذاب الجحيم التى « أوجدها الرب بنفسه » .. إن تعذيب الملعونين المحكوم عليهم بالهلاك ينبغى أن يكون شديداً ، لأنه مظهر الإنتقام الإلهى .. إن العقاب رهيب ، ولكن الإنتقام أمر لا سبيل إلى التخفيف منه(٤٥) » وحرم باكستر الإتصال الجنسى إلا بقصد الإنجاب مع حليلة شرعيه . ومذ رأى أن هذا التقييد يتطلب ضبط النفس على طريقه الرواقيين ، فإنه أوصى بالحمام البارد والتغذى على الخضروات ، للتخفيف من الشهوة الجنسيه(٤٦) وقد نغتفر له لاهوته إذا رأيناه ، وهو فى السبعين من العمر (١٦٨٥) واقفا فى قفص الإتهام أمام القاضى الوحشى الغليظ القلب « جفرى » ، لأنه تفوه ببضع كلمات ضد مزاعم الأنجليكانيين ولم تتح له أيه فرصه للدفاع عن نفسه أو تفسير آرائه ، وحكم عليه بدفع غرامة قدرها ٥٠٠ جنيه ، أو السجن حتى يدفع المبلغ كاملا(٤٧) . وأفرج عنه بعد ١٨ شهرا ، ولكنه لم يسترد عافيته بعد ذلك قط .

وظل الكويكرز يعانون الاعتقال ومصادرة الممتلكات لرفضهم تأديه القسم أو لتخلفهم عن الصلوات الأنجليكانيه ، أو عقد الاجتماعات غير المشروعه. وفى ١٦٦٢ كان فى السجون الإنجليزيه أكثر من ٤٢٠٠ منهم : « وحشر بعضهم فى السجن حشراً لايدع مجالا للجلوس وحرموا من فرش القش ليرقدوا عليها ، وكثيرا ما منع عنهم الطعام(٤٨) . ولكن جلدهم ومثابرتهم وتشبثهم أكسبهم المعركة آخر الأمر ، وخفت حدة الاضطهاد عمليا ، إن

لم يكن قانونا . وفى ١٦٧٢ أطلق شارل سراح ١٢٠٠ رجل منهم (٤٩) ، وفى ١٦٨٢ منح أخوه جيمس دوق يورك براءة مقاطعه جرسى الشرقية فى أمريكا ، إلى روبرت باركلى وهو كويكرى اسكتلندى ، و « الصاحب » الكويكرى الغنى « وليم بن » وبعض زملائهم الآخرين .

وكان بن وهو إبن أمير البحر وليم بن الذى استولى على جمايكا لانجلترا . قد مر وهو صبى فى الثانية عشرة بأطوار مختلفة من الانفعال الدينى الذى فوجىء فى أثنائه لفوره براحة فى أعمـــاق نفسه ، وبهالة متألقة فى الغرفة ، إلى حد أنه قال عدة مرات بأنه منذ تلك اللحظة ختم بخاتم القداسة والخلود . « الإيمان الراسخ » بأن هناك الها وأن نفس الإنسان يمكن أن تنعم بهذا الاتصال الإلهى (٥٠) . وفى ١٦٦١ طرد من أكسفورد وحكم عليه بدفع غرامة لأنه رفض حضور الصلوات الأنجليكانية . ولما عاد إلى أبيه أوسعه ضربا بالسياط ، وطرده من المنزل لإعلانه اعتناق مذهب الكويكرز . ثم رق قلب الوالد فبعث بإبنه إلى فرنسا ليتعلم « المرح الباريسى » ، وربما اكتسب من هناك بعض الكياسة والأساليب المصقولة التى تحلى بها ، وفى ١٦٦٦ ارتضى لنفسه اثم الخدمة فى الجيش الإنجليزى الذى يعمل فى ايرلنده ، ولكن بعد عام واحد شهد اجتماعا للكويكرز فى كورك ، والتهبت حماسته من جديد ، فطرد جنديا ضايقه بكثرة الأسئلة فاقتيد إلى السجن ، ومنه كتب إلى حاكم مونستر يلتمس إباحة حرية العبادة . وبعد عودته إلى إنجلترا أحرق مراكبه من خلفه ، وأصبح واعظا كويكريا ، وقبض عليه المرة بعد المرة . ولعبت محاكمته ١٦٦٩ دورا فى تاريخ القانون الإنجليزى . ذلك أن هيئة المحلفين برأته ، فحكم القاضى على المحلفين بالسجن والغرامة بتهمة إهانة المحكمة وازدرائها . فاستأنف المحلفون أمام محكمة الدعاوى المشتركة ، التى أعلنت عدم شرعيه القبض عليهم ، وكان فى هذا تثبيت لحق هيئة المحلفين وسلطتهم فى انجلترا . ولكن بن أودع السجن ، على أية حال ، لأنه رفض أن يخلع قبعته فى المحكمة . وأخلى سبيله فى الوقت

المناسب ليحضر وفاة أبيه (١٦٧٠)، وقدترك له دخلا يقدر بألف وخمسمائة جنيه فى العام ، ودينا على التاج قدره ١٦ ألفا من الجنيهات أقرضه أبوه لشارل الثانى وأعيد إلى السجن لقيامه بإلقاء العظات، وفيه كتب أبلغ دفاع عن التسامح تحت عنوان « القضية الكبرى لحرية الضمير » ، (١٦٧١) ، وفى احدى الفترات التى تمتع فيها بالحرية تزوج من امرأة ثرية ، واشترى حصة فى النصف الغربى لما يعرف الآن بولاية نيوجرسى . وصاغ لهذه المستعمرة دستورا يؤكد فيه على التسامح الدينى وسلطة المحلفين فى التحقيق والحكومة الشعبية ، ولكن الزمام أفلت من يده ، ولم تطبق مواد هذا الدستور .

وفى ١٦٧٧ عبر بن وجورج فوكس وروبرت باركلى وجورج كيث القنال الإنجليزى ليبشروا بمذهب الكويكرز فى القارة . وأسس جماعة من « كرهيم » ممن حولهم بن إلى مذهبه ، مدينة « جرمانتون » ، فى بنسلفانيا ، وكانوا أول من أعلن أنه من الخطأ أن يكون للمسيحيين رقيق . ورجع بن إلى انجلترا ، وأخذ زمام المبادرة فى منع الكويكرز من الإنضمام إلى حركة اضطهاد الكاثوليك من أجل ما يسمى « بالمؤامرة البابوية » . وكان « خطابه إلى البروتستانت من جميع المذاهب » (١٦٧٩) نداء قويا للتسامح الدينى فى أكمل صوره . وفى ١٦٨١ قبل التاج اقتراح بن التنازل عن حقه فى المطالبة بالدين ، لقاء منحه ما يعرف الآن باسم بنسلفانيا . أن بن اقترح اسم « سلفانيا » للجزء المترامى الأطراف الكثيف الأحراش ، فالحق شارل الثانى « مقطع » بن « بهذه اللفظة » تخليدا لذكر أمير البحر . وعلى الرغم من الخضوع التام للملك ، فان حكومة المستعمرة الجديدة كانت ديموقراطية ، وكانت العلاقة مع الهنود دودية قائمة على العدل والإنصاف ، كما أطاق الكويكرز ، وهم يشكلون غالبية المستوطنين ، الحرية الدينية . وعمل بن فى هذه المستعمرة بجد لمدة عامين ، ولكنه فى ١٦٨٤ سمع بنبأ اضطهاد جديد عنيف تتعرض له طائفته . فأسرع بالعودة إلى لندن . وهناك بعد عام واحد أصبح صديقه دوق يورك ملكا على إنجلترا ، وهو جيمس الثانى ، كما صار بن من ذوى

النفوذ والمكانة فى الحكومة . ولنا معه لقاء آخر .

أن طريق المقاومة السلبيه الذى انتهجه الكويكرز ضد الاضطهاد كان أكبر قوة فعاله ساعدت على التسامح الدينى فى عصر التعصب ، وقدر أحد المنشقين أنه كان هناك ستون ألف حاله اعتقال بسبب الخلاف الدينى بين عامى ١٦٦٠ و ١٦٨٨ ، وأن خمسة آلاف ممن اعتقلوا قضوا نحبهم فى السجن(٥١) . وكان تعصب البرلمان أسوأ من فجور البلاط والمسرح . وذكر مؤرخ كتب التاريخ مثل ما صنعه تقريبا « فى هذه الفترة الدقيقة الحرجة » كاد الملك أن يكون الصوت الوحيد الرحيم الذى ينادى بآراء عصرية حديثة ودأب طوال حكمه على النضال من أجل التسامح(٥٢) وفى ١٦٦٩ عندما صدر الحكم على ثلاثه أشخاص بدفع غرامة كبيرة للتاج ، بناء على قانون قديم صدر فى عهد الملكة اليزابيث ، لتخلفهم عن حضور الصلوات الأنجليكانية ، أعفاهم شارل من دفعها ، وأعلن أنه لن يسمح بتطبيق هذا القانون بعد اليوم « لأنه من رأيه وقناعته الخاصة أنه لا يجوز أن يضار أحد بسبب تفكيره وما يمليه عليه ضميره(٥٣) » .

وكان من المحتمل أن يقر وجهة نظر الملك فى التسامح عدد متزايد من الانجليز ، لولا أنهم كانوا يرتابون فى رغبته فى التخفيف من ويلات الكاثوليك فى انجلترا التى كانت لا تزال تخشى سيطرة البابا ، ومحاكم التفتيش الأسبانية وحكومة القساوسة ، إلى حد أن البرسبتيريانز والبيوريتانيين آثروا تحريم عبادتهم على السماح بالعبادة الكاثوليكية فى انجلترا . وكان الانجليز . الكاثوليك يشكلون آنذاك نحو ٥ ٪ من السكان(٥٤) . وكانوا من الناحية السياسية ضعافا عاجزين . ولكن الملكة كانت كاثوليكية ، كما أن شقيق الملك لم يبذل إلا أيسر الجهد فى إخفاء تحوله إلى الكثلكة (١٦٦٨) وكان فى انجلترا حينذاك ٢٦٦ من اليسوعيين . كان أحدهم أبنا غير شرعى للملك ، وبدأوا يظهرون علنا فى جرأة وثقة . على الرغم من القوانين البالغة التشدد . وكانت المدارس الكاثوليكيه تقام فى الدور الخاصه .

وأرهقت انجلترا . وأقام البروتستانت فى كل عام عرضا تظاهروا فيه ضد البابوية ، وحملوا إلى « سميثفيلد » تماثيل للبابا والكرادلة ، أحرقوها هناك . أنهم لم ينسوا « جى فوكس » . ولكن الكاثوليك صبروا وصابروا ولم يفقدوا الأمل ، فمن الجائز الآن أن يرقى كاثوليكى عرش انجلترا فى أية لحظة

٣ — الاقتصاد الانجليزى ١٦٦٠ — ١٧٠٢

قدر عدد سكان انجلترا وويلز فى ١٦٦٠ بنحو خمسة ملايين نسمة(٥٥) ربما ازداد إلى خمسة ملايين ونصف المليون فى ١٧٠٠ (٥٦) ، أى أنه لا يكاد يبلغ ربع عـــدد سكان فرنسا أو ألمانيا ، وأقل من ربع سكان إيطاليا أو أسبانيا ٥٧) . وكان سبع السكان من طائفة « اليومن » ، أى صغار مالكى الأرض الأحرار الذين يملكون الأرض التى يفلحونها ، وشكل المزارعون المستأجرون الذين يعملون فى أراضى النبلاء وذوى الحسب والنسب ، نحو سبع آخر من السكان . أما بقية السكان فكانوا يقيمون فى المدن .

وبازدياد السكان نقص نصيب الأسرة من الخشب ، وتزايد استخدام الفحم فى البيوت والحوانيت ، وتطور علم المعادن واستخراجها من المناجم وأصبحت شفيلد مركزاً لصناعة الحديد . وسرت فى انجلترا حمى الانتاج وجمع الثروات . وتوسل أصحاب المصانع إلى البرلمان أن يصدر تشريعات ترغم العاطلين الكسالى على مزاولة العمل . وتزايد تشـــغيل الأولاد فى الصناعات المحلية ، وبخاصة النسيج . وتهلل وابتهج ديفو لأنه فى كولشستر وتونتون » لم يكن ثمة ولد فوق الخامسة من العمر ، فى المدينة أو فيما حولها من القرى ، أهمله والده أو لم يتلق تعليما ، إلا استطاع أن يكسب قوته » وبالمثل حول « وست رايدنج » : « لا يكاد يوجد ولد جاوز الرابعة إلا كفته يداه مؤونة العيش(٥٨) » .

وكان معظم الصناعة يتم فى المنازل أو فى حوانيت الأسرة . وحدث

توسع فى نظام المصانع فى النسيج والحديد . وتذكر نشرة ظهرت فى ١٦٨٥ كيف أن « أصحاب المصانع يشيدون بتكاليف باهظة ، دوراً ضخمة تضم كل القائمين بعمليات صناعة الصوف ، من فرز وتمشيط وغزل ونسج وكبس بل وصباغة ، فى صعيد واحد » . وقيل أنه كان هناك مصنع من هذا القبيل يعمل فيه ٣٤٠ شخصا . وكان فى جلاسجو فى ١٧٠٠ مصنع نسيج يضم ١٤٠٠ عامل(٥٩) . وكان تقسيم العمل والتخصص فيه آخذين فى التقدم ، وكتب سير وليم بتى فى ١٦٨٣ « فى صناعة الساعة » ، إذا قام فرد بعمل التروس ، وآخر يصنع الزنبرك ، فثمه ثالث يحفر القرص المدرج ، ورابع يتولى صناعه الأغلفه ومن ثم تخرج الساعه أحسن وأرخص مما لو كلف بالعمل كله فرد واحد(٦٠) .

وظلت أجور الأعمال الزراعية يحددها الحكام المحليون وفقا لقانون الغلمان للمهنيين « الذى صدر فى ١٥٨٥ فى عهد اليزابث ، فإذا دفع رب العمل ، أو أخذ العامل ، أكثر من الأجر المحدد ، تعرض كلاهما للعقاب . وتراوحت أجور الأعمال الزراعية فى تلك الفترة بين خمسة وسبعة شلنات فى الأسبوع مع الإقامة والطعام(٦١) . أما الصناعة فكانت الأجور فيها أعلى قليلا . فكان الأجر اليومى شلنا فى المتوسط ، وربما كان هذا ، من حيث القيمة الشرائية ، يعادل ، دولارين ونصف دولار فى ١٩٦٠ . أما أجور المساكن فكانت منخفضة نسبيا ، حيث كان ايجار البيت المتوسط الاتساع فى لندن يبلغ نحو ٣٠ جنيها فى السنة(٦٢) . وكانت البيرة رخيصة الثمن ، أما السكر والملح والفحم والصابون والأحذية والملابس ، فكانت أثمانها فى ١٦٨٥ تعادل أثمانها فى ١٨٤٨(٦٣) . وازدادت أسعار الحبوب إلى خمسة أمثالها بين عامى ١٥٠٠ و ١٧٠٠(٦٤) . وأكلت طبقات العمال خبز الجاودار والشعير والشوفان ، أما خبز القمح فكان ترفا ينعم به ذوو اليسار ، ونادرا ما ذاق الفقراء اللحم . واعتبر الفقر الذى كان عليه جمهور الشعب أمرا عاديا ، ولو أنه ربما كان أشد منه فى أخريات العصور الوسطى(٦٥) . ويقول ثورولد روجرز :

« سعى مالكو الأرض طوال القرن السابع أن يحصلوا من مستأجرى الأرض على أكبر مايستطيعون من ايجار ، وبأقصى مايمكن من قوة فرضوا على العمال أجورا تؤدى بهم إلى الجوع والعوز ، وبذلوا قصارى جهدهم فى استغلال التشريع ليحصلوا من المستهلك على أسعار عالية تقرب الناس من حافة المجاعة والقحط . والتاريخ زاخر بالشواهد الكثيرة على تفاقم الحال يوما بعد يوم(٦٦) » .

وفى ١٦٩٦ قدر جريجورى كنج أن ربع سكان انجلترا كان يعيش على الصدقات ، وأن الأموال التى تجمع لإعانة الفقراء كانت تعادل ربع تجارة الصادرات(٦٧) . وقهر الأغنياء الفقراء وغلبوهم على أمرهم إلى حد بات معه الأجراء والفلاحون أضعف من أن يثوروا ويتمردوا ، ولمدة نصف قرن خمد صراع الطبقات فى انجلترا(٦٨) .

أما الكنيسة الانجليكانية التى كانت قد تجاسرت أيام شارل الأول على أن تدافع عن الفقراء من وقت لآخر ، فقد خلصت الآن ، نتيجة للثورة البيوريتانية ، إلى أن مصالحها تحقق على أحسن وجه ، إذا ربطتها بمصالح طبقات الملاك ربطا تاما(١٦٩) . وكان البرلمان شكلا من ائتلاف بين مالكى الأرض وأصحاب المصانع والتجار والرأسماليين . ومن ثم أصغى ، بحكم شعور الزمالة المتبادل ، إلى صيحات طبقة أرباب العمل ليخلصهم من القوانين التى تعوق انطلاق القوى الاقتصادية للعمل دون قيود . وقبل نهاية القرن السابع عشر ، وقبل ظهور آدم سميث بزمن طويل ، سمعت انجلترا صيحة رب العمل « اتركه يعمل » (سياسة عدم التدخل) من أجل الحرية الاقتصادية ، وتخلص أرباب العمل من العوائق القانونية والإقطاعية والنقابية ، فى تشغيل العمال والإنتاج والتجارة(٧٠) ، وتجاوزوا القيود النقابية وانهارت النظم المهنية ، وبطل العمل بتحديد الأجور عن طريق الحكام المحليين ، بفعل القوة النسبية للمساومة بين أرباب العمل الأثرياء والعمال الجياع(٧١) . إن الأيديولوجيه الحديثه الحريه ، بدأت هنا الآن ، حين طالب للقانون

والملتزمون للمغامرون ، في صخب وغضب ، بالتحرر من القيود القانونيه والأخلاقيه .

وباتت التجارة الآن عنصرا هاما فعالا فى الاقتصاد الإنجليزى ، وعاملا حيويا فى حصول البرلمان على الاعتمادات التى يقررها ، إلى حد أنها ، أى التجارة ، شقت طريقها لتفعل ما تشاء مع حكومه يسيطر عليها مالكو الأرض . وأصبح التشريع الإنجليزى فى التجارة ، يحابى الإنجليز لا على حساب الهولنديين وحدهم ، بل على حساب الايرلنديين والاسكتلنديين كذلك ، وحرم استيراد الماشية والأغنام والخنازير من ايرلندة واستبعد الغلال الاسكتلندى ، وفرضت ضرائب ثقيلة على واردات اسكتلنده . إن الرغبه فى التوسع فى التجارة الإنجليزيه وتوفير الحمايه العسكريه لها ، هى التى حثت على التحالف مع البرتغال ، وزواج شارل الثانى من كاترين براجانزا ، وعلى تجدد الحرب مع المقاطعات المتحدة ، والتصميم على الاحتفاظ بجبل طارق . وتضاعف حجم تجارة إنجلترا بين عامى ١٦٦٠ و١٦٨٨ ، بسبب الانتصار على الهولنديين ، إلى جانب أسباب أخرى (٧٢) ، وكتب شارل الثانى إلى أخته يقول : « إن أقرب شىء إلى قلب هذه الأمة هو التجارة وكل ما يتعلق بها(٧٣) » . وبات ثراء التجارة ينافس الآن اقتناء الأراضى الواسعة الطيبة.

ومدت المشروعات المغامرة الإنجليزية أذرعها فى كل اتجاه ، فاتسمت المستعمرات الجديدة فى نيويورك ونيوجرسى ومنسلفانيا وكارولينا وكندا ، ومنحت شركة الهند الشرقية كل الحقوق فيما تستطيع أن تضع يدها عليه فى الهند ، وكان لهذه الشركة أسطولها وجيشها وحصونها وعملتها وقوانينها ، وكانت تعلن الحرب وتفاوض لعقد الصلح ، وتم الاستيلاء على بمباى بالمصاهرة فى ١٦٦١ ، وعلى منهاتان (فى نيويورك) بحق الفتح فى ١٦٦٤ . وفى العام نفسه استولى الإنجليز على الممتلكات الهولندية على الساحل الغربى لأفريقية . ومن أجل تزويد هذه المستعمرات بالأيدى العاملة نشأت عادة « الإكراه » وهى إغراء الشبان الإنجليز بالعمل فى هذه « المزارع » بتقديم الخمر لهم أو ضربهم حتى يفقدوا وعيهم ، وعندئذ يحملونهم إلى ظهر سفينة

على وشك الإقلاع ، ثم يوضحون لهم فيما بعد أنهم كانوا قد وقعوا عقداً للعمل(٧٤) . إن القانون حرم هذا الإجراء ، ولكنه لم ينفذ . وكان موقف البرلمان واضحاً ، فإنه على حين انتهت ثورتا ١٦٤٢ — ١٦٤٩ و ١٦٨٨ — ١٦٨٩ إلى تغلب البرلمان على الملك ، حدثت فى نفس الوقت ثورة إقتصادية متزامنة انتهت بسيطرة التجارة والصناعة والمال على البرلمان .

وكان فى انجلترا فى تلك الأيام مئات من « الصائغين أصحاب المصارف » (مقرضو النقود) الذين يدفعون ٦٪ أرباحاً على الودائع ، ويتقاضون ٨٪ على القروض(٧٥) . وكان شارل الثانى يلتمس أى منفذ لتجنب سلطة البرلمان على الخزانة ، فلجأ إلى الاستدانة كثيراً من أصحاب المصارف هؤلاء ، حتى بلغت ديونه منهم فى ٢ ينـاير ١٦٧٢ ، ١٫٣٢٨٫٥٢٦ جنيهاً(٧٦) ، وفى هذا التاريخ كان مجلس الملك على وشك أن يشن الحرب على المقاطعات المتحدة فأحدث فى مجتمع المال هزة عنيفة « باغلاق خزانة الدولة » أى منع تسديد فوائد ديون الدولة لمدة عام . فساد الذعر ، ورفض أصحاب المصارف الوفاء بالتزاماتهم تجاه أصحاب الودائع ، أو تنفيذ إتفاقاتهم مع التجار ، وعمل المجلس على تهدئة العاصفة بوعود قاطعة باستئناف الدفع فى نهاية العام . واستؤنف الدفع فى ١٦٧٤ ، وسدد رأس المال عن طريق تعهدات والتزامات حكومة جديدة . والواقع أنه فى ٢ يناير ١٦٧٢ تحددت بداية الدين الوطنى فى انجلترا ، وتلك حيلة جديدة فى تمويل الدولة .

ومذ باتت لندن موطن أصحاب المصارف وأمراء التجارة ومركز الثروة المجموعة عن طريق نظام الأسعار ، من منتجى الطعام والسلع ، فإنها كانت الآن أكثر مدن أوربا اكتظاظاً بالسكان ، فنافست قصور رجال الأعمال قصور الأرستقراطية فى البذخ والترف ، إن لم يكن فى الذوق . وكانت فيها مجموعة من المخازن بشعاراتها الفاتنة ولافتاتها المزخرفة ونوافذها ذات العمد الحجرية ، تعرض منتجات العالم(*) أمام أنظار الأقلية ، ورصفت

(*) حوالى هذه الفترة بدأت النوافذ الزجاجية تحل محل النوافذ القديمة ذات الاطارات

الشوارع الرئيسية وحدها بالحصى عادة وحوالى ١٦٨٤ أضيئت بنور ضعيف حتى منتصف الليل فى الليالى غير المقمرة بقناديل يعلق واحد منها كل عشرة أبواب . ولم يكن فى الشوارع أرصفة للمشاة ، وكانت نهاراً تعج بالحركة الصاخبة من الباعة المتجولين الذين يعرضون بضاعتهم فى سلال أو عربات يد ، أو عجلات يد ، وبالمناداين الذين يعرضون القيام بخدمات منزلية مثل « قتل الفيران والجرذان(٧٧) » . وكان هناك المتسولون واللصوص فى كل شارع ، كما وجد أيضاً المغنون الذين يرفعون عقيرتهم بالأغنيات من أجل الحصول على بنس . وكان حى الأعمال يسمى « السيتى » . وكان يحكمه عمدة وهيئة البلدية ومجلس ينتخب أرباب البيوت فى الأحياء أعضاءه . وإلى القرب من هذا الحى ، كان يقع « الحى السياسى » وستمنستر ، وفيه الكنيسة والقصر اللذان يحملان هذا الاسم (وكان القصر مقر البرلمان) ، وفيه القصران الملكيان هويتهول وسان جيمس . وخارج هذين القسمين من المدينة كانت أحياء الأكواخ التى تعج بالفقراء الكثيرى التناسل . ولم تكن الشواع فيها مرصوفة فكانت العربات ترش ، مزهوة ، ماء المطر أو الوحل على المشاة ، وهى تصطدم بالجدران فى الأزقة الضيقة . وكانت المنازل متقاربة جداً بعضها من بعض ، والأدوار العليا متلاصقة متقابلة ، بما لايدع مجالا لضوء الشمس المتقطع أن ينفذ إليها . ولم يكن نظام المجارى الحالى معروفا فى لندن آنذاك ، بل كانت مراحيض خارجية وبالوعات ،وكانت العربات تحمل الفضلات وتقذف بهاخارج حدود المدينة ، أو فى نهر التيمز بطريقة خفية غير مشروعة

وكان تلوث الهواء آنذاك بالفعل مشكله وبناء على طلب الملك أعد جون افلـــين ونشر فى ١٦٦١ خطه لتبديد الدخان الذى علق بسماء لندن ، قال :

« إن الاسراف فى استخدام الفحم يعرض لندن لأسوأ الازعاج والخزى

= الخشبية الثقيلة ، لأن الزجاج يسمح بنفاذ قدر أكبر من الضوء .

والعار ، وليس هذا ناشئا من نيران المطابخ التى لا يكاد يرى لها أثر ، بل من بعض مداخن معينة فى مصانع البيرة ومحال الصباغة وإحراق الجير ، ومصانع الملح وغلى الصابون وبعض مصانع أخرى ، تكفى فوهة إحدى المداخن فيها ، وحدها وبشكل واضح ، لتلويث الهواء وإزعاج لندن أكثر مما تفعل كل مداخن المدينة مجتمعة ... إن لندن تكون أقرب شبها ببركان اتنه أو بضواحى جهنم ، منها بمجتمع تعيش فيه مخلوقات عاقلة ، حين تفتح هذه المداخن أفواهها وتنفث القتام والسخام ... أن السائح المنهوك سرعان مايشم ، من مسافة عدة أميال ، رائحة المدينة التى يقصد إليها ، قبل أن يراها ... أن هذا الدخان الأسود الكريه ... يقرح الرئتين ، وهذا داء لا شفاء منه ، إلى حد أنه يقضى على أعداد كبيرة من الناس ، نتيجة السل المنهك الخطير ، كما ينبىء بذلك نشرات الوفيات الأسبوعية(٧٨) » .

وأعد ايفلين مشروع قانون للبرلمان الذى كان أقرب منالا لرجال الصناعة الأثرياء منه للجمهور الذى يعوزه التنظيم ، ومن ثم لم يحرك هذا البرلمان ساكنا . وبعد ثلاثة عشر عاما سويا رفع سير توماس براون صوت الطب عاليا ، يحذر من :—

« الروائح الكريهة التى تنفثها البالوعات العامة ، والأماكن المنتنة وفضلات المواد المغلية التى تستخدمها المصانع القذرة غير الصحية كما أن الضباب والسديم يعوقان دخان الفحم من أن يهبط ويتبدد ، ومن ثم يمتزج بالسديم ويتنفسه الناس ، ولكل هذا آثار سيئة ، حيث يلوث الدم ويعرض السكان للنزلات الشعبية والسعال(٧٩) » .

إن الهواء الفاسد ، وضعف الرعاية الصحية وسوء التغذية كان يهدد بانتشار الأوبئة فى كل عام وما أن تجىء فترة تتجمع فيها ظروف غير مواتية ، حتى تنزل كارثة الطاعون . وفى ٣١ اكتوبر ١٦٦٣ دون بيبز فى مذكراته : « أن الطاعون منتشر فى أمستردام ، ونحن فى فزع منه هنا » . وكانت السفن القادمة من هولنده تخضع للحجر الصحى ، وفى ديسمبر ١٦٦٤ مات شخص واحد بالطاعون فى لندن ، واثنان فى أبريل ١٦٦٥ ،

وفى مايو ٤٣ شخصاً ، وهكذا تفاقم الحال حتى حل الصيف الحار مع مطر قليل يساعد على تنظيف الشوارع ، فكان ضغثا على إبالة ، وأيقنت لندن التى ملأها الفزع والجزع ، أنها تواجه شيئاً شبيها بالموت الأسود ١٣٤٨ الذى لا تزال ذكراه عالقة بالأذهان . وكان ديفو آنذاك صبيا فى السادسة ، ولكنه استطاع أن يعى قدرا كبيراً مما تردد فى هاتيك الأيام عن الطاعون : فكتب قطعة خيالية بعنوان « صحيفة عام الطاعون » تكاد تكون فى منزلة التاريخ(٨٠) :

« منذ الأسبوع الأول من يونيه انتشرت العدوى بصورة رهيبة ، وارتفعت أرقام الوفيات ، وعمد الناس إلى إخفاء قلقهم قدر الطاقة ، حتى يحولوا دون ابتعاد جيرانهم عنهم ، أو دون إغلاق الحكومة لبيوتهم . وفى يونيه تزاحم الأغنياء على مغادرة المدينة ، وفى هويتشا بل ما كان يمكن أن ترى إلا العربات ، وعربات اليد تحمل البضائع والنسوة والأطفال وغيرهم ، بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الرجال على ظهور الخيل .. وهو منظر رهيب كئيب(٨١) » .

وزادت النذر والتنبؤات عن المصير المشئوم من الرعب ، وأغلقت المسارح وحلبات الرقص والمدارس ودور المحاكم . وانتقل الملك وحاشيته فى يونيه إلى أكسفورد « حتى يحوطهم الله برعايته إن شاء » دون أن يمسهم سوء ، ولو أن صيحات التأنيب تعالت ضدهم لأنهم هم الذين جلبوا هذا البلاء ، عقابا من عند الله ، على فسادهم وفجورهم ، وبقى رئيس أساقفة كنتربرى فى مقره فى لامبث ، ينفق فى كل أسبوع عدة مئات من الجنيهات عونا للمرضى والأموات . وبقى موظفوا المدينة فيها يقومون بأعمال بطولية . وأرسل الملك ألف جنيه ورجال الأعمال فى « السيتى » ستمائة جنيه أسبوعيا ، وهرب كثير من الأطباء ورجال الدين ، وبقى آخرون وقضى كثيرون نحبهم متأثرين بالعدوى . وجرب الناس الأدوية والعلاجات على اختلاف أنواعها ، فلما أخفقت لجأوا إلى التمائم والتعاويذ التى قد تصنع

المعجزات . وفى ٣١ أغسطس ١٦٦٥ قال بيبز « فى هذا الأسبوع مات ٧٤٩٦ شخصا منهم ١٦٠٢ بالطاعون » . وكان حفارو القبور يحملون من يموتون فى الشوارع على عربات اليد ، ويدفنونهم فى مقابر عامة . وبلغت جملة من ماتوا بالطاعون من أهالى لندن فى ١٦٦٥ ، نحو سبعين ألفا ، وهذا سبع السكان . وخف الوباء فى ديسمبر ، وعاد الناس لمزاولة أعمالهم شيئا فشيئا . وفى فبراير ١٦٦٦ عادت الحاشيه إلى العاصمة .

وما كاد السكان الباقون على قيد الحياة يروضون أنفسهم على احتمال ما كلفهم الطاعون من خسائر حتى داهمت المدينة كارثة اخرى . وكانت كارثة حقا ، ذلك أنه فى يونيه ١٦٦٦ أبحر الهولنديون فى جرأة إلى التيمز ودمروا المراكب الإنجليزية فيه بمدافع سمع صوتها فى لندن . ولكن فى الساعة الثالثة من صباح الأحد ٢ سبتمبر ، فى حانوت خباز فى بودنج لين ، شب حريق ، أتى فى ثلاثة أيام على معظم الجزء من لندن الواقع شمال النهر . ومرة أخرى تآمرت الظروف وتجمعت المصائب : صيف جاف ، وبيوت كلها تقريبا مبنية من الخشب ، متلاصقة ، كثير منها خال من السكان الذين يقضون عطلة نهاية الأسبوع فى الريف ، مخازن ملأى بالزيت والقار والقنب والكتان والخمور وغيرها من المواد القابلة للاحتراق فى الحال ، ثم هبت ريح عاصفه حملت النار من بيت إلى بيت ، ومن شارع إلى شارع ، أضف إلى ذلك سوء التنظيم وعدم الاستعداد لمواجهه مثل هذا الحريق فى مثل هذا الوقت من الليل . ومن حسن حظ ايفلين أنه كان فى سوثوارك ، فأسرع إلى شاطىء النهر .

« حيث شهدنا المدينة بأسرها وقد اندلع فيها اللهب الرهيب بالقرب من الماء ، فى كل الدور من جسر لنـــدن ، وفى شارع التيمز ، صعدا نحو تشيسيد ... وامتدت النيران فى كل مكان ، وعرت الدهشة الناس ، إلى حد أننا لم ندر منذ البداية ، ماذا تولاهم من قنوط وجزع حتى أنهم بشق النفس تحركوا لاخمادها ، فلم نكن نسمع أو نرى إلا الصرخات والعويل والنواح

وهم يجرون هنا وهناك ، ذاهلين مخبولين . كذلك أحرقت النار الكنائس والقاعات العامة ، وسوق الأوراق المالية والمستشفيات والآثار والزخارف والبيوت والأثاث أنها أتلفت كل شيء ... »

وهنا رأينا النهر مغطى بالبضائع الطافية فوق الماء والزوارق والقوارب محملة بالبضائع التي وجد بعض الناس فسحة من الوقت وأوتوا شيئاً من الشجاعة لانقاذها . كما كان هناك على الجانب الآخر العربات وغيرها ، تنقل إلى الحقول ، التي انتشرت لعدة أميال كل المنقولات من كل نوع ... كما نصبت الخيام ليأوى إليها الناس وما استطاعوا أن يستخلصوه من بضاعة ومتاع . يالهول المنظر الأليم المفجع الذى لم تصادف الدنيا مثله منذ بدء الخليقة . وغطت ألسنة النيران وجه السماء ، فبدت وكأنها أتون ملتهب ... انى أرجو الله ألا تقع عيناى ثانية على مثل هذا المنظر ، منظر أكثر من عشرة آلاف بيت تحترق كلها فى لحظة واحدة وكان صوت اللهب المندلع وفرقعته ورعده ، وصراخ النساء والأطفال ، وهرولة الناس ، وسقوط الأبراج والمنازل والكنائس ، أشبه شيء بعاصفة هوجاء ، وكان الهواء ساخناً إلى حد أن الناس اضطروا إلى الوقوف جامدين ، تاركين النار يشتد أوارها ، وتمتد ألسنتها لمسافة تقرب من ميلين طولا وميل عرضا(٨٢) » .

وأبلى الملك وأخوه المكروه جيمس ، كلاهما ، بلاء حسنا فى هذه الأزمة ، وجدوا فى العمل بأيديهم مع مكافحى النيران ، وأشرفوا على أعمال الإغاثة ومولوها وهيأوا المأوى والطعام لمن بأتوا بلا مأوى ، وأصروا ، برغم المعارضة الشديدة ، على هدم البيوت ليحولوا دون امتداد الحريق ، مما كان له أثره فى انقاذ جزء من المدينة فى شمال التيمز(٨٣) وكاد الحى التجارى أن يمحى عن آخره ، أما حى السياسة « وستمنستر » ، فقد أنقذ ، ودمر ثلثا مدينة لندن ، بما فى ذلك ١٣٢٠٠ منزل ، ٨٩ كنيسة بما فيها كنيسة سانت بول العتيقة ، ولقى ستة أشخاص فقط مصرعهم ، ولكن مائتى ألف شخص فقدوا مساكنهم(٨٤) . ودمرت معظم المكتبات واحترق من الكتب

ما قيمته ١٥٠ ألف جنيه . وقدر مجموع الخسائر والأضرار بنحـو ١٠٫٧٣٠٫٠٠٠ جنيه(٨٥) ، وهو ما ربما يعادل اليوم ٥٠٠ مليون دولار .

وبعد الكارثة نظم المجلس البلدى فى لندن إدارة للمطافىء ، وركبت خراطيم الماء فى أنابيب الماء الرئيسية . وكان على كل شركة أن تعين بعض أعضائها ليكونوا على أهبة الاستعداد لتشغيلها لدى سماع أى انذار ، وكان على كل العمال أن يحذوا حذوهم إذا استدعاهم عمدة المدينة . وأعيد بناء لندن فى شىء من التمهل ، على طراز أمتن وأقوى ، وإن لم يكن أجمل من ذى قبل . وبأمر من الملك حل الطوب والحجر محل الخشب ، واختفت الطوابق العليا الناتئة ، وأصبحت الشوارع أوسع وأكثر استقامة ، ورصفت بالحجر السلس الأملس ، وخصصت الطوارات للمشاة . وتحسنت الرعاية الصحية . وقضت النيران على كثير من الأقذار والفيران والبراغيث والجراثيم فتخلصت لندن من الطاعون ، وجدد المهندس المعمارى « رن » بناء كنيسة سانت بول .

٤ — الفن والموسيقى ١٦٦٠ - ١٧٠٢

ولد كرستوفر رن Wren فى أحضان الدين ، ورضع لبان العلم ، وتوجه بالفن . كان أبوه كبير كهنة وندسور ، وعمه أسقف الى Ely ، والتحق بمدرسة وستمنستر ، ثم كلية وادهام فى « أكسفورد » وفى ١٦٥٣ حصل وهو فى الحادية والعشرين على منحة لمتابعة الدراسة فى كلية « جميع النفوس » . ثم أصبح فى سن الخامسة والعشرين أستاذا للفلك فى كلية جريشام فى لندن ، وفى سن التاسعة والعشرين شغل « كرسى » « سافيل » للفلك فى أكسفورد . وبدا أنه وهب نفسه للعلم ، فقد سحرت لبه الرياضيات والميكانيكا والبصريات والأرصاد الجويه والفلك . فقوم السيكلويد (وجد أن الخط المستقيم مكافىء لانحناء السيكلويد) . وشرح قوانين التصادم ، ونسب إليه نيوتن كثيرا من التجارب التى أدت إلى وضع قوانين الحركة الثلاثة(٨٦) . وعمل بجد على تحسين التلسكوب وصقل

المدسات وبحث فى دوائر زحل . وابتكر طريقة لتحويل الماء المالح إلى ماء عذب ، وأدى من أجل بويل أول عملية حقن للسائل فى مجرى الدم فى الحيوان . وأثبت أن الحيوان يمكن أن يعيش بسهولة بعد إزالة طحاله . واشترك مع توماس ولس Willis فى تشريح المخ • وأعد الرسوم اللازمة « لتشريح ولس المشهور » وكان من أوائل أعضاء « الجمعية الملكية » وهو الذى كتب مقدمة ميثاقها • وما كان أحد ليحلم أنه سيخلد فى التاريخ على أنه أعظم مهندس معمارى انجليزى .

أن الظروف قد تغير مجرى الحياة • وربما كانت مهارة رن فى الرسم هى التى حدت بشارل الثانى إلى تعيينه مساعدا لسير جون دنهام (١٦٦١) رئيس المساحة فى الأشغال العامة . وسرعان ما وجد فى العمارة ذلك التزاوج بين العلم والفن ، أى اضفاء الجمال على الحقيقة ، وهذا هو ما كان يشغل كل تفكيره . وكتب يقول : « هناك لونان من الجمال : الجمال الطبيعى والجمال المألوف أو العادى المتعارف عليه • والجمال الطبيعى تأتى لنا به الهندسة ، أما الثانى ، الجمال المألوف ، فإنه يتأتى من ترويض حواسنا على الأشياء التى تبعث السرور والبهجة عادة ••• فى نفوسنا ولكن المعيار الحقيقى دائما هو الجمال الطبيعى أو الجمال الهندسى(٨٧) » • فالشىء الصحيح هندسيا ، كما يرى رن ، يسرنا هو نفسه ، ويكون جميلا (أحد الجسور الكبرى فى العالم مثلا) • ومن هذه الزاوية آثر العمارة الكلاسيكية على العمارة القوطية • وفى تصميماته الأولى ترسم خطى اينجو جونز .

وفى ١٦٦٣ وضع تصميم مسرح شلدون فى أكسفورد للأسقف جلبرت شلدون ، وهنا منذ البداية ، اتبع مبادىء كلاسيكيه • فرفع الصرح الدائرى الضخم ، على نفس الطراز الذى وضعه فتروفيوس فى قديم الزمان وفينولا فى عصر النهضه • وساعدت إقامته الطويلة فى فرنسا ١٦٦٤ — ١٦٦٦ على ترسيخ ميوله الكلاسيكيه • ولكن إعجابه بكنيسه فرنسوا مانسارت فى فال - دى - جراس ، جنح به إلى إضافه شىء من زخارف الباروك إلى

واجهات مبانيه . كما أنه تذكر قبه فال ـ دى ـ جراس ، وهو يعيد بناء كنيسه سانت بول .

وعاد رن إلى لندن فى مارس ١٦٦٦ . وفى أبريل ، بناء على طلب الأسقف شلدون وضع خطة لإصلاح الكاتدرائية المتداعية ، التى ساخت من العمر آنذاك نحو ٦٠٠ عام . وفى ٢٧ أغسطس وافقت لجنة اصلاح كنيسة سانت بول على مشروع رن . ولم يمض على ذلك أسبوعان حتى دمر حريق لندن التاريخى الكنيسة ، وجرى الرصاص الذى أذابته النيران من سقفها فى الشوارع .

أن هذا الحريق الذى أتى على ثلثى العاصمة هيأ للعمارة فرصة لم تتح لها منذ حريق رومه . وكانت النيران لاتزال كامنة تنفث الدخان حين عرض رن على شارل الثانى مشروعه الرائع لإعادة بناء المدينة . وقبل الملك المشروع ، ولكن أعوزه المال اللازم له ، كما أن المشروع تعارض مع حقوق الملكية القوية . وشغل رن نفسه بمشروعات أخرى ، وأعد فى ١٦٧٣ تصميما لكنيسة سانت بول جديدة . ولكن رجال الكاتدرائية اعترضوا بأن التصميم تبدو عليه سيماء معبد وثنى ، وحثوا رن على التزام الطراز القوطى فى الكنيسه العتيقة ، ووافق كارها على حل وسط ، بحيث يكون الداخل عبارة عن أقواس وجناح من الكنيسه ومكان خاص بالمرتلين ، وكلها على الطراز القوطى ، على أن تكون الواجهه من طراز عصر النهضة : مدخل ذو رواق معمد وقوصرة كلاسيكية وبرجان من طراز الباروك . وكانت النتيجة خليطا كريه المنظر من الطراز ، ولو أن رن أصلح منه بعض الشىء بتتويج الجزء الداخلى بقبة تنافس قبة برونلسكى فى فلورنسة وميكلانجلو فى رومه وستظل سانت بول أروع كنيسة شادها البروتستانت

وعلى حين مضى هذا المشروع فى طريق التنفيذ لمدة خمسه وثلاثين عاما ، كان رن الذى خلف دنهام فى تولى شئون المساحة العامة ، وضع تصميما

لثلاث وخمسين كنيسة أخرى . اشتهر كثير منها بأبراجها وقممها المستدقة التى جمعت بين حاسة الجمال عنده وبين نزعته الرياضية. أضف إلى هذا دار الجمارك فى لندن ، والمستشفى فى كل من جرينتش وشلس ، والكنائس الصغيرة فى كلية بمبروك فى كمبردج وترنيتى كولدج فى أكسفورد ، ومكتبة ترنيتى كولدج فى كمبردج والجناح الشرقى الكلاسيكى فى قصرها مبتون كورت ، وستا وثلاثين دارا نقابية ، وعددا من الدور الخاصة بل يبدو أنه فى الأربعين عاما الأخيرة من القرن السابع عشر . لم يشيد مبنى له قيمته وأهميته ، إلا كان رن هو المهندس الذى تولاه(٨٨). واحتفظ رن بمنصبه فى المساحة طوال حكم شارل الثانى ، وجيمس الثانى ، ووليم ومارى ، وآن . وتقاعد عن العمل فى سن السادسة والثمانين ، ولكنه ظل لخمس سنوات أخرى يشرف على العمل فى كنيسة وستمنستر ، وينسب بعضهم إليه فضل إقامة أبراجها ، وفارق الحياة فى سن الحادية والتسعين ، ودفن فى كنيسة سانت بول .

وكان فن النحت لايزال يتيما فى انجلترا . ولكن الحفر على الخشب كان فنا رفيعا . وكان جرلنج جيبونز معاونا له قيمته للمهندس رن ، قام بحفر المقاعد فى المكان المخصص للمرتلين وصندوق الأرغن الفخم فى كنيسه سانت بول ، والزخارف فى قصر وندسور وقصر كنسنجتن وهامبتون كورت .

واستمر فن الرسم فى انجلترا على أن يستقدم الأساتذة ويثبط من همم بنيه . وعلى الرغم من ذلك ، كان بعضهم يعد جون ريلى أعظم رسام لصور الأشخاص فى فترة عودة الملكيه وأدرك جون أن الوجه المدروس الذى يرسم فى روية ، هو فى ذاته سيرة حياة ، فاستطاع أن يقــرأ خطوطه ، وفى بصيرة نافذة كشف فى ثناياه عن خفاياه وأسراره وأبرزها فى شجاعه غير صريحه . وكاد تعليق شارل الثانى على صورة رسمها له ريلى يكون سببا فى انهيار الفنان ودماره ، حين قال الملك : « أهذه صورتى » ؟ ياخيبه الأمل ،

اذن أنا رجل قبيح المنظر »ومضى زمن طويل قبل أن تدرك الحاشية أن هذا كان مجرد تحية عفوية لأمانة الفنان . وبنفس الدقة والأمانة أخرج ريلى صور الملك الأحمق جيمس الثانى ، وادموند وإلر الشاعر المرتد ، وارل آروندل الأرستقراطى التافه المختال . ولكنه حين رسم كرستوفرون وربرت بويل ، وقع على العبقرية ووضع يده على إماراتها فى الوجه ، وعلى بريقها فى العينين. قال هوراس وولبول « ربما كان فى مقدور ريلى، بربع غرور سيرجودفرى نللر ، أن يقنع العالم بتفوقه وسموه(٨٩) . وفارق الحياة فى ١٦٩١ وهو فى سن الخامسة والأربعين .

وكان للى الهولندى ونللى الألمانى فارسى الحلبة المرموقين فى رسم الأشخاص فى عصر آل ستيوارت الثانى . وكان والد للى جنديا هولنديا اسمه فان درفاس . (واشتق لقبه هذا (للى) من زنبقة كانت مرسومة على داره•وانحدر اللقب إلى الإبن . ولد بيتر فى وستفاليا ١٦١٨ ، ودرس الرسم فى هارلم ، وعبر البحر إلى انجلترا (١٦٤١) حين سمع أن شارل الأول أوتى الذوق والمال ، ووفق فى أن يخلف فانديك بوصفه مصور الأشخاص الذى يبتغيه الناس ، وظل محتفظا بمكانته هذه على عهد كرومول وشارل الثـــانى ، واقتبس للى أسلوب فانديك فى اضفاء الأناقة والرشاقة على الجالسين أمامه (لرسمهم) . ولو فى اللباس فقط • وحاصرته ربات الجمال فى الحاشية ، من ذلك أننا نرى فى قاعة المتحف الوطنى لوحة نل جوين ريانة فاتنة داعرة . وكونتس شروزبرى التى ساءت سمعتها ، بمغامراتها الغرامية كما نرى على جدران قصر هامبتون كورت ليدى كاسلمين ولويزدى كيروال ، تزدهيان بحلمات أندائهما . وأجمل من ذلك جون تشرشل وهو طفل مع أخته (٨٩' أزابلا(٩٠) ومن الذى كان يتوقع أن يصبح هذا الطفل الملائكى والطفلة الملائكية دون مالبرو القوى الجبار ، والعشيقة التى تصحب زحزحتها لجيمس دوق يورك ؟ .وعن طريق مثل هذه اللوحات حصل للى على لقب فارس ، وجمع ثروة . فقد جلس أمامه شارل الثانى وستة من الأدواق

لرسمهم . ورأى بين أنه جبار معتد بنفسه .. يحظى بمنزلة رفيعه[٩١] » ، وكان يعيش « عيشه مترفه باذخه[٩٢] » وحدد له موعدا للقائه بعد ثلاثه أسابيع .

وفى ١٦٧٤ ، أى قبل وفاة للى بست سنوات ، قدم إلى لندن رجل ألمانى عقد العزم على أن يخلف سير بيتر (للى) فى رسم الأشخاص وفى كسب المال وفى الفروسية ، وحقق الرجل برنامجه وكان الرجل ، وهو جوتفريد فون نللر ، آنذاك فى الثامنة والعشرين ، وعينه شارل الثانى « مصور البلاط » واحتفظ نللر بهذا المنصب فى عهد جيمس الثانى ووليم الثالث الذى منحه لقب فارس ، ورسم سير جودفرى لوحات لثلاثة وأربعين من أعضاء « نادى كيت كات » ذى المكانة السياسية البارزة[٩٣] ولعشر من النساء الخطيرات المغويات فى بلاط وليم[٩٤] . وغطى على شهرة دريدن ولوك . ومثلما يتلهف أى إنسان على الخلود ، حول نللر مرسمه الفخم إلى مصنع ينتج بالجملة ، بهيئة لم يسبق لها مثيل من المساعدين ، يتخصص كل منهم فى شىء معين : الأيدى ، الثياب الأشرطة والخطوط الملونه . وفى بعض الأحيان جلس أمامه أربعة عشر شخصا فى يوم واحد . وشيد قصرا فى الريف ، وتنقل بينه وبين بيته فى المدينة فى عربة تجرها ستة جياد . واحتفظ بحياته فى كل التقلبات السياسية . وفاضت روحه وهو فى فراشه معززا مكرما فى سن السابعة والسبعين (١٧٢٣) وفى تلك السنة ولد رينولدز ، وكان هوجارت فى السادسه والعشرين من العمر ، وبدأ الرسم الوطنى يترعرع ويشق طريقه .

وقضى البيوريتانيون تقريباً على الفن ، ولكنهم لم يخرسوا الموسيقى . ولم يخل من الآلات الموسيقيه إلا أحقر البيوت ، ولاحظ بين وجود الفرجينال (آلة تشبه البيان الصغير بدون قوائم) فى كل قارب من ثلاثه من القوارب التى تحمل البضائع المنقذة فى التيمز أثناء الحريق[٩٥] ، وكتب يقول : « لا بد أن أفسح المجال للموسيقى والنساء مهما كنت مشغولا » .

وكان يورد ذكر صفارته ومزهره وعوده وقيثارته . قدرما يذكر أسلحته(٩٦) وكل إنسان ورد ذكره فى مذكراته ، كان يعزف ويغنى . وكان من القضايا المسلم بها عنده أن أصدقاءه كان فى مقدورهم أن يشاركوا فى الغناء(٩٧) ، وأنه هو وزوجته وخادماتهما كانوا يغنون فى حديقته غناء متناغما ، بشكل مقبول إلى حد أن جيرانهم كانوا يفتحون النوافذ ليستمعوا إليهم .

وفى الابتهاج بعودة الملكية صدحت الموسيقى من كل شكل ولون . واستقدم شارل الموسيقيين من فرنسا . وسرعان ماجعل الناس يدركون أنه كان يحبذ الألحان الرخيمة المبهجه الواضحه التى لاتحسب الرياضيات تناسقا أو تناغما . ووضعت آلات الأرغن من جديد ولعلمت فى الكنائس الرسميه . وكان الأرغن الذى صمم لكنيسه سانت جورج فى وندسور ، وللكاتدرائيه فى أكستر ، من بين عجائب الدنيا التى أحدثت دويا فى ذاك العصر . ولكن حتى فى جماعه المنشدين فى الكنيسه حل محل الوقاروالرهبه، عروض مسرحيه من فنانى والالآت المنشدين المنفردين . وأمر شارل الثانى وجيمس الثانى باعداد الموسيقى للشعر الغنائى وحلبات الرقص التى تقام إحتفالا بالمناسبات الملكيه . واستخدمت الكنائس الموسيقى لقاء أجر ، وجازفت المسارح بالأوبرا ، وبدأ الملحنون والعازفون الانجليز يرتزقون من جديد .

وفى ١٦٥٦ أقنع سير وليم دافنانت حكومه الحمايه لترخص له فى إعادة افتتاح مسرح ، على أساس أنه سيخرج أوبرا ، لاروايه وفى « حفلة الأيام الأولى » التى مثلها لم يكن هناك أوبرا بقدر ما كان هناك سلسلة من الحوارات سبقتها وتخللتها وأعقبتها الموسيقى . ولكن فى العام نفسه عرض دافننانت فى مسرحه الخاص « رتلندهاوس » أول أوبرا إنجليزيه « حصار رودس(٩٨) » ولكن إغلاق المسارح بسبب الطاعون والحريق ، عوق هذة التجارب . على أنه فى ١٦٦٧ عرض دافننات المغامر ، فى صورة

صوره موسيقية معدلة « العاصفة » التى زعم أنها من عمل أبيه . وحددت أوبرا بورسل « ديدو وإينياس » بداية الأوبرا الكاملة فى إنجلترا .

وكما هو الحال غالبا فى تاريخ الموسيقى ، فإن عبقرية هنرى بورسل كانت فى معظمها نتاج وراثة اجتماعية — أى بيئة سن المراهقة . فكان أبوه رئيس المرتلين فى وستمنستر ، وكان عمه يشغل وظيفة « ملحن القيثارات لصاحب الجلالة » . وكان أخوه ملحنا وكاتبا مسرحيا . وتابع ابنه وحفيده عمله فى العزف على الأرغن فى الكنيسة . أما هو فلم يمتد به الأجل لأكثر من سبعة وثلاثين عاما (١٦٥٨ — ١٦٩٥) ، وتولى الترتيل فى الكنيسة الملكية وهو لا يزال صبيا ، حتى ضعف صوته . وألف فى شبابه ترانيم دينية ظلت تسمع فى الكاندرائيات الإنجليزية على مدى قرن من الزمان : وألحانه الإثنى عشر من نوع السوناتة (١٦٨٣) لقيثارتين أو لأرغن وبيان قيثارى ، هى التى جلبت شكل السوناتة من إيطاليا إلى إنجلترا ، ويقول بيرنى أن أغانيه وترانيمه والكانتاتا (قصه تنشدها المجموعة على أنغام الموسيقى من غير تمثيل) وموسيقى الفرقه التى ألفها « فاقت إلى حد بعيد كل ما أنتجته أو استوردته بلادنا من قبل ، إلى حد يبدو معه أن سائر الألحان الموسيقيه باءت بالاحتقار أو لاذت بزاويا النسيان(٩١) .

ولما كان بورسل منهمكا فى عمله ، عازفا على الأرغن وملحنا ، فإنه لم يتيسر له أن يخرج « ديدو وإينياس(*) » قبل ١٦٨٩ ، لنخبه مختارة من المتفرجين ، فى إحدى مدارس البنات فى لندن . وتبدو الموسيقى لنا الآن ، حتى الاستهلال المشهور ، هزيلة نحيلة ، ولكن يجب أن نتذكر أن الأوبرا كانت آنذاك فى المهد ، وأن جمهور المستمعين آنذاك لم يولع بالضوضاء والصخب مثلنا اليوم أما اللحن الأخير — عويل ديدو ونواحها : « عندما

(*) فى الأساطير الرومانية — ديدو أميرة صور إلى أسست قرطاجه وأصبحت ملكة عليها ، وتقول انيادة فرجيل ، أنها رحبت بإينياس حين قدم إلى قرطاجة بعد سقوط تراوده ، ووقعت فى شراك غرامه ، ثم قتلت نفسها حين غادرها .

openkandil.com

أتوسد الثرى » فإنه من أكثر ما يهز المشاعر ويؤثر فى النفوس ، من الحان فى تاريخ الأوبرا بأسره » .

أما « الملك آرثر » (١٦٩١) التى كتب كلماتها دريـدن ووضع موسيقاها بورسل ، فليست أوبرا بالمعنى الكامل ، حيث يبدو أن الموسيقى لم تكن مرتبطه إلا إرتباطا يسيراً بجو الروايه أو أحداثها ، مثلما أن الروايه لم يكن لها صلة وثيقه بعصر آرثر كما نراه فى مالورى وتنيسون . وبعد ذلك بعام واحد ، أحرز بورسل تقدما أكثر فى موسيقى ثانويه لروايه « فيرى كوين : الملكة الجنيه » ، وتكييف مجهول الاسم « لحلم ليله منتصف الصيف » . ولم يمتد به الأجل ليشهد إخراجه ، وضاعت الألحـان ، ولم تكتشف إلا فى ١٩٠١ وهى الآن تعد من أحسن ما أنتج بورسل .

وفى ١٦٩٣ وضع أكثر قصائده الغنائيه الكثيرة ، أحكاما واتقانا ، فى الاحتفال بيوم سانت سيسيليا . ولكن أرق هذه القصائد هى « تسبيحة الشكر والابتهاج » المرحة ١٦٩٤ . وكانت تعزف سنويا فى الإحتفال « بأبناء رجال الكنيسة » حتى ١٧١٣ ، حتى اشتركت فى هذا الشرف مع مقطوعة هاندل « تسبيحة الشكر من أوترخت » ، فكانتا تعزفان بالتبادل سنويا حتى ١٧٤٣ . ومن أجل جنازة الملكة مارى ١٦٩٥ ، ألف بورسل ترتيلة مشهورة « يا ربنا : أنت أعلم بخفايا قلوبنا » . وفى سنواته الأخيرة اسهم فى الموسيقى الثانويه لروايه دريدن « الملكة الهنديه » ومن الواضح أنه مرض قبل أن يتمها لأن موسيقى الخاتمة وضعها أخوه دانيل . وحانت منيته ، ربما بسبب السل ، فى ٢١ نوفبر ١٦٩٥ .

وعلى الرغم مما امتلأت به فترة عودة الملكية من حيوية ونشاط ، فإن الموسيقى الانجليزية لم تكن قد أفاقت بعـد من نكستها على يد البيوريتانيين بعد عهد اليزابث . وبدلا من ترسيخ جذورها ثانية فى التربة الانجليزية ، حذت حذو الملك ، فانحنت إجلالا وإكباراً أمام الأساليب

الفرنسية والآلات الايطالية . وبعد أوبرا « ديدو واينياس » غزت الأوبرا الايطالية مسرح الأوبرا الانجليزى ، يقدمها مغنون ايطاليون . كتب بورسل فى ١٦٩٠ « ان الموسيقى الانجليزية لم تبلغ بعد سن الرشد إنها طفل تواق طموح يبشر بما يمكن أن يكون عليه فى المستقبل ... إذا وجد أساتذته مزيدا من التشجيع (١٠٠) » .

٥ — الأخلاق

فلنبدأ لفورنا هنا بالتفريق بين عامة الشعب وأبناء الطبقات العليا ، فالاستهتار الجنسى الذى ساد فترة عودة الملكية ، سرى عن طريق الحاشية إلى الطبقة الوسطى العليا وسكان المدن وماحولها الذين ترددوا على المسارح وربما كانت أخلاق العامه المغمورين أفضل منها فى عصر البزابث ، لأن النظام الاقتصادى أبقاهم على اعتدالهم وبعدهم عن السرف ، فلم يكونوا يملكون الوسائل التى يترددون بها فى مهاوى الرذيلة والشر ، وظلوا يحسون بوازع من عقائدهم البيوريتانيه . ولكن فى لندن ، وبوجه أخص ، فى الحاشيه الملكيه ، فإن التحلل من القيود البيوريتانيه ورد الفعل الناتج عن ذلك ، أديا إلى اتصال جنسى غير مشروع ومرح صاخب غير برىء . أما الشباب الارستقراطى الذى اقتلع من أرض الوطن وأطلق لنفسه العنان فى فرنسا ، فقد ترك أخلاقه وراءه فى المنفى ، وأتى معه لدى عودته بضروب من الفوضى الموسومه بالرشاقه والظرف ، وانتقاما منهم للسنوات التى عانوا فيها عنت الظلم والحرمان والسلب والنهب ، شنوا بكل ما أتوا من قوة وذكاء ، الحرب على زى البيوريتانيين وحديثهم ولا هوتهم ومبادىء الأخلاق عندهم ، إلى حد لم يجرؤ معه واحد من أبناء طبقتهم أن ينبس ببنت شفه من أجل الحشمة والوقار . وباتت الفضيلة والتقوى والأمانة الزوجية كلها ألوانا من البراءة أو السذاجة الريفية وأصبح الزانى الذى يوفق كل التوفيق فى هذه الرذيله ، هو بطل عصره وفريد زمانه ، (كما هو الحال فى رواية وتشرلى : الزوجة الريفية) والواقع أن الديانه فقدت مكانتها

وإعتبارها بين الناس ، ولم يبق لها شيء من هذا إلا عند الحرفيين والفلاحين. وصار الوعاظ موضع الإحتقار والازدراء على أنهم منافقون كئيبون أغبياء منزعجون مملون ثقال الظل . وأصبحت الديانة الوحيدة الصالحة للسيد الماجد هى الأنجليكانية المهذبة التى يحضر فيها للولى (رب العمل أو مالك الأرض) صلاة الأحد لتدعيم مركز القسيس الذى يزرع الخوف من نار الجحيم فى نفوس القرويين ، ويسبح بالحمد والشكر ، فى إيجاز مناسب ، من جانب المنصة التى يجلس إليها المولى أو سيد القرية . . وأصبح أقرب إلى طابع العصر أن يكون المرء ماديا على مذهب هوبز ، لامسيحياً مثل ملتون ، الأحمق العجوز الأعمى الذى نظر إلى سفر التكوين على أنه تاريخ ، وفقدت نار الجحيم التى بولغ فيها فى العشرين سنة الماضية ، رهبتها وهيبتها لدى طبقات المالكين . أما الجنة فى رأيهم ، فهى ماثلة دوما فى مجتمع متحرر من الثورة الإجتماعية والسكيت الخانق فى ظل حاشية وملك ضربا المثل وتقدما الركب فى الفسق والفجور والميسر واللهو والعبث .

وكان ثمة عدة رجال أفاضل ونساء فضليات بين أفراد البلاط الملكى ، وكان كلارندن مثلا رجلا ذا مبادىء وسلوك قويم حتى سارت ابنته فى طريق الغواية فاهتاج وفقد صوابه ، وأوصى بقتلها وتحلى أول سوثمبتون الرابع ودوق أورمند الأول بالحشمة والوقار ، وكان بين رجال الدين الأنجليكانيين نفر من المخلصين الأتقياء ، حتى من الأساقفة أو ذوى المراتب الكنيسة العالية . وصدقت عزيمة الملكة وليدى فانشو والآنسة هملتون ، أو السيدة جودولفين فيما بعد ، فى التمسك بأهداب الفضيله . ويقينا كان هناك أفراد غير هؤلاء وهؤلاء ، ضاعت ذكراهم فى ثنايا التاريخ لأن الفضيلة لا تعلن عن نفسها .

وكلما علت المكانة أنحطت الأخلاق . فهناك جيمس ، دوق يورك ، شقيق الملك ، الذى يبدو أنه بز الملك فى حصته من الخليلات العشيقات (١٠١) . وبينما هو فى المنفى تسلل إلى مخدع آن هايد ابنة قاضى القضاة ، فلما حملت

منه توسلت إليه أن يتزوجها ولكنه كان يماطل ، وأخيراً وقبل أن تضع وليدها بسبعة أسابيع (٢٢ أكتوبر ١٦٦٠) اتخذ منها زوجة شرعية سراً . وعندما سمع أبوها (كلارندون) بنبأ هذا الزواج ، كما تروى سيرة حياته(١٠٢) احتج لدى الملك بأنه لم يعلم شيئاً عن هذا الاتفاق ، وأنه « كان يؤثر أن تكون ابنته خليلة الدوق لا زوجته ، وأنهما إذا كان حقا قد تزوجا « فينبغى على الملك أن يزج بالمرأة فى السجن فورا » ، وأن يصدر فى الحال قرار من البرلمان بقطع رأسها ، وأنه لن يوافق على هذا القرار فحسب ، بل سيكون عن طيب خاطر أول من يقترحه » . وهز الملك كتفيه استهجانا للموضوع على أنه هراء لاغناء فيه ، وكأنه يسمع جعجعة ولا يرى طحنا ، وربما أدرك قاضى القضاة أن الملك لن يلزمه بكلمته . وتحدث فى صرامة وتجهم ، على الطريقة الرومانية ، ليعوض عما ثار من ريبه فى أنه رتب أمر الزواج من قبل ، ليجعل من ابنته ملكة على أن ابنته آن ماتت بالسرطان فى ١٦٧١ ، فى سن الرابعة والثلاثين .

واتخذ جيمس ، بينما كانت زوجته (آن) تعانى مشاكل الأمومة ، من أرابلا تشرشل عشيقة له ، وهى التى إرتضى أخوها هذا الوضع حتى يحظى بالترقى فى مناصب الجيش . ورغبة فى معاونة آن وأرابلا والتخفيف عنهما اتخذ الدوق بضع خليلات أخريات لمضاجعته واستاءت إيفلين بصفة خاصة من من سلوكه الشائن مع ليدى دنهام (١٦٦٦)(١٠٣) . ولم يغير تحول جيمس إلى الكثلكة من خلقه شيئاً . فكان كما كتب بيرنت « دائم التنقل من غرام إلى غرام دون أن يحسن الاختيار ، حتى قال الملك يوما أنه يعتقد أن القساوسة هم الذين يقدمون له العشيقات عقوبة يكفر بها عن ذنوبه(١٠٤) » ودامت علاقته بأرابلا نغمة عذبة من الأرغن ، وسط هذا التنقل بين مطارح الهوى ، وبقيت بعد موت آن ، وبعد زواج جيمس (١٦٧٣) من مارى مودينا .

وينبغى علينا أن نضيف إلى ما ذكرنا ، أن دوق يورك نفسه كان يتحلى بمناقب تدعو إلى الإعجاب ، فإنه — وهو أمـــير البحر

(١٦٦٠ — ١٦٧٣) ، بذل أقصى الجهد فى التغلب على سوء النظام والفساد فى البحرية ، نتيجة لضآلة الأجور والمؤن التى تصرف لرجال البحر وتدريبهم الهزيل ، وأبدى مهارة وشجاعة فى اشتباكاته مع الهولنديين. ونهض بمهام الإدارة فى مقدرة واخلاص. ولم تشب أية شائبة قط اخلاصه العميق لأخيه الملك ، بل انتظر صابرا طيلة ربع قرن من الزمان قبل أن يخلفه على العرش . وكان صريحا مخلصا يسهل الوصول إليه ، ولكنه كان شديد الكلف بمكانته وسلطانه إلى حد لم يكن معه شعبيا ، وكان صديقا يقيم على الود ، وعدوا عنيدا لايغتفر الاساءة . وكان ذا جلد على العمل الشاق ولكنه لم يكن متوقد الذكاء. وكان يأبى النصح والمشورة أيما إباء .

وكان يحتل المركز الثانى فى البلاط، جورج فليبردوق بكنجهام الثانى . وكان ابن محظية جيمس الأول التى لقيت حتفها ، ومن ثم قاتل إلى جانب شارل الأول فى الحرب الأهلية ، ومع شارل الثانى فى وورسستر ، وعينه الملك الذى استرد العرش عضوا فى مجلسه الخاص وكان بارعا ذكيا أنيسا كريما ، ولذلك سيطر فى البلاط بسحره وفتنته لبعض الوقت ، وكتب « ملهاة » رائعة . « التجربة » ، وتلهى بالكيمياء القديمة والعزف على القيثارة إلى حد ما. ولكن وجهه وثراءه جلبا عليه الدمار. انه تنقل من امرأة إلى أخرى ، وانغمس فى عبث مخزشائن . وبدد ضيعته الهائلة . وكان يتوق إلى الظفر بكونتيس شروزبرى ، فتحدى زوجها لمبارزته ، وتنكرت هى فى زى خادم ، وأمسكت بجواد بكنجهام أثناء المبارزة ، وصرع بكنجهام الكونت ، وعانقت الأرملة السعيدة الدوق المنتصر الذى كان لايزال مضرجا بدم زوجها ، وعادا ظافرين إلى قصر الفريسة(١٠٥). وعزل بكنجهام عن منصبه (١٦٧٤) ، وانصرف إلى اللهو والعبث ، ومات فقيرا معدما يجلله الخزى والعار .

وكان ينافس بكنجهام فى المكانة والذكاء والقصف والعربدة والانحلال

جون ولموت أرل روشستر الثانى ، حصل جون على درجة الأستاذية من أكسفورد فى سن الرابعة عشرة (١٦٦١) وهو أمر لايصدق ، والتحق بالبلاط فى السابعة عشرة . وأصبح المشرف على حجرة الملك . وكان فى حاجه إلى المال وهو فى سن التاسعه عشرة ، فتودد إلى وريثه ثرية تباطأت فى تحقيق بغيته ، فاختطفها ، ومن أجل ذلك زج به فى السجن ، فرق قلبها له ، ثم حظى بالزواج منها ، ثم بثروتها ، وكم من مرة أبعده شارل عن الحاشيه وأعاده إليها ، مستسيغا فطنته وذكاءه . وكان روشستر — مثل بكنجهام — خبيرا فى التقليد والمحاكاة ، وكان يسر بالتنكر فى زى حمال أو متسول أو تاجر أو طبيب ألمانى ، وكان يوفق فى هـذا التمثيل والمحاكاة إلى حد ضلل أو خدع معه أوثق أصدقائه صلة به . وزعم بوصفه طبيبا أنه يبرىء من الأدواء المستعصية عن طريق علمه بالتنجيم . وجذب إليه مئات من المرضى ، وشفى عددا منهم ، وسرعان ماقصدت إليه سيدات البلاط لملاجهن . وعجز أولئك الذين عرفوه حق المعرفة ، عن التعرف عليه(١٠٦) وفى كل هذه التنكرات تقريبا كان يطارد السيدات ، دون أى اعتبار لمكانتهن . وكن هن يتعقبنه كذلك . وتسلى جون بكتابة قطع من الهجاء البذىء الداعر . وقضى على حياته بالخمر والفجور . وكان يفخر بأنه كان ثملا مخمورا لمدة خمس سنوات بلا انقطاع — ومات فقيرا نادما فى سن الثالثه والثلاثين .

وكان فى الحاشية رجال كثيرون من أمثال ولموت ، حتى أن بيبز نفسه ، وهو غيرها و المزنى تسائل : « ماذا ستكون نهاية كل هذا الشراب وهذا السباب وهذه العلاقات الغرامية الفاجرة(١٠٧) » وعبر بوب عن هذه الحالة فى « بحث فى النقد » ، ولكنه لم ينصف الملك كل الإنصاف ، فهو يقول :

« إذا كانت المهمة الهينة اللينة للملك هى العشق والغرام ، فقلما نراه فى مجلس الحكم ، ولا نراه أبدا فى ساحة الوغى ، فان الدولة يحكمها النساء الحائنات بالعهد اللائى يتنقلن من حب إلى حب ، أما رجال الدولة والسياسة فيكتبون المسرحيات الهزلية الساخرة ولا يستفاد بذوى المواهب ،

والوردات الشبان اليافعون خلو من الذكاء والفطنة ، .... ولم تعد المروحة المتواضعة المحتشمة ترفع ، وعلت الابتسامة وجوه العذارى لما كانت وجناتهن تحمر له حياء وخجلا من قبل(١٠٨) .

وكان من الأمور المسلم بها أن الزوجات — مثل الأزواج — تعوزهن الأمانة والاخلاص ، فان الرجال لم يتطلبن الأمانة والإخلاص إلا فى عشيقاتهم(١٠٩) . إن مذكرات كونت فيليبرت دى جراموت التى دونها بالفرنسية أخو زوجته ، أنطونى هملتون ، كانت ، أحيانا ، عبارة عن قائمة بالمغرورين المختالين ، أو سلسلة من الديوثين الذين لايغارون على زوجاتهم وهم يعلمون انهن يأتين الفاحشة ، كما رآهم الكونت فى منفاه السعيد فى بلاط شارل الثانى .

وكم كانت الساعات تقضى وتخصص للرقص وسباق الخيل وصراع الديكة ولعب البلياردو والورق والشطرنج ، والألعاب الأرضية والحفلات التنكرية المرحة ، ثم كما يقــول بيرنت « يطوف الملك والملــكة وكل أفراد البلاط ، وهم جميعا متنــكرون ، بالبيوت غير المعروفة ، حيث يرقصون ويعبثون ويلهون فى صخب فاجر(١١٠) » وكانت المراهنات على مبالغ طائله . يقول ايفلين « فى هــذه الليله ، افتتح جلالة الملك الحلبة ، كما هى العادة ، فألقى « الزهر » بنفسه فى القاعة الخاصة ، . . . وخمس مائة جنيه . (وكان قد كسب فى العام الماضى ١٥٠٠ جنيه) . وأقبل السيدات كذلك على اللعب اقبالا شديدا(١١١) » وحذت الطبقات العليا حذو الحاشية فى القمار والدعارة . وتحدث ايفلين عن شباب انجلترا الفاسق الفاجر الذى فاقت إلى حد كبير دعارته المذهله ، حماقات سائر الأمم المتحضرة مهما كانت(١١٢) . وانتشر اللواط ، وبخاصة فى الجيش . وكتب روشستر رواية عنوانها « سودومى » (نسبة إلى سودوم قرية قوم لوط) مثلت أمام الحاشية . والظاهر أنه كان فى انجلترا عدد من المواخير لهذا الاختلاط الجنسى الشاذ(١١٣) .

وكان عدد الزيجات القائمة على الحب يتزايد . وهناك أمثلة رائعة ، منها زواج دوروثى أو زيورن من وليم تمبل ، الذى ثبت أنه زواج سعيد ، ولو أن دوروثى كتبت تقول . « ليس الزواج القائم على الحب تصرفا معيبا ملوما ، إذا كنا لم نر من بين ألف من الزوجين الحبيبين الذين يقدمون عليه ، زواجا واحدا يمكن أن يتخذ مثلا على أنه يمكن اتمامه دون ندم عليه فى المستقبل »(١١٤) » . وكتب سويفت إلى سيدة شابة فى موضوع زواجها فتحدث عن الشخص الذى اختاره أبواها ليكون زوجا لها . وأضاف « أن زواجك كان قائما على الحكمة والحصافة والتدبر والشعور الطيب المتبادل ، خاليا من عوائق الانفعال السخيف فى الحب الرومانتيك(١١٥) » . ويذكر كلارندون : « إن رغبتى الأولى فى الزواج لم تتعلق إلا بضيعة ملائمة مريحة(١١٦) » .

ومن الناحيه النظرية كان للزوج كل السيطرة على زوجته ، كما يتحكم حتى فى الصداق الذى أتت به إليه . وفى كل الطبقات كانت مشيئة الزوج قانونا . وفى الطبقات الدنيا استعمل الزوج حقوقه المشروعه فى ضرب زوجته ، ولكن القانون حرم عليه استعمال عصا يجاوز سمكها سمك ابهامه(١١٧) . وكان انضباط الأسرة أو نظامها قويا ، اللهم إلا فى الطبقات العليا فى لندن ، حيث شكا كلارندون من أن الوالدين ليس لهما أى سلطان على الأبناء ، كما أن هؤلاء لايذعنون للاباء ولا يطيعونهم . بل « ان كل انسان يتصرف كما يحلوله »(١١٨) . وكان الطلاق نادرا ، ولكن يمكن اجازته بقرار من البرلمان . ورأى الأسقف بيرنت — مثل لوثر وملتون — أنه يمكن السماح بتعدد الزوجات فى حالات معينة ، وعرض هذه الفكرة على شارل الثانى ، بسبب عقم الملكة ، ولكن الملك رفضها ، تحاشيا للتمادى فى اذلال زوجته(١١٩) .

وهددت الجريمة الأرواح والممتلكات بشكل مستمر . وكان اللصوص والنشالون يتجمعون فى عصابات ويسطون فى جنح الليل . وكانت المبارزة

محرمة بحكم القانون ، ولكنها بقيت امتيازا للسادة الأماجد ، فإذا صرع مبارز غريمه وفقا للقواعد ، نجا المنتصر عادة بسجن قصير مريح . وسعى القانون جاهدا ليكافح الجريمة عن طريق ما يبدو الآن عقوبات وحشية . ولكن ربما كانت الاجراءات الصارمة لازمة لغزو العقول المتحجرة أو المتبلدة . وكان التعذيب والموت عقوبة الخيانة العظمى . وكان الشنق عقوبة القتل أو الجناية أو تزييف العملة . وكانت الزوجة التي تقتل زوجها تحرق حية . أما السرقات الخفيفة فكانت عقوبتها الجلد ، أو قطع احدى الأذنين ، وضرب أى فرد من حاشية الملك يعاقب بقطع اليد اليمنى . أما التزوير والخداع وغش الموازين والمقاييس فكانت عقوبتها التعذيب فى المشهرة ، أحيانا مع دق الأذنين كلتيهما بالمسامير فى آلة التعذيب ، أو ثقب اللسان بقضيب من الحديد المحمى(١٢٠) . وكان الناس عادة يستمتعون بمشاهدة مثل هذه العقوبات(١٢١) ، ويحتشدون ، وكأنهم فى يوم عطلة ، ليشهدوا سجينا على حبل المشنقة . وضمت السجون فى عهد الملك السعيد عشرة آلاف سجين من أجل الديون ، وكانت السجون قذرة ، ولكن كان من الممكن أن يقدم الحراس بعض التيسيرات مقابل رشورة . كانت العقوبات أشد صرامة وقسوة منها فى فرنسا المعاصرة ، ولكن القانون كان أكثر تحرراً . ولم تكن فى انجلترا « أوامر مختومة » (لا لقاء أى شخص فى السجن دون محاكمة) ، بل كان فيها نظام التحقيق فى قانونية الاعتقال . إلى جانب نظام المحلفين .

وشاركت الأخلاقيات الاجتماعية فى الانحلال العام . وتزايدت أعمال البر . ولكن ربما كان الواحد والأربعون ملجأ فى انجلترا مجرد وجه آخر لجشع الأقوياء ، وكان كل فرد تقريبا يعمد إلى الغش أثناء لعب الورق(١٢٢) ودب الفساد فى كل الطبقات بمعدل أكبر من المستوى العادى . ومن مذكرات بيبز تفوح رائحة الفساد فى مختلف الأعمال ، فى السياسة وفى البحرية وفى بيبز نفسه . من ذلك أن المؤسسات والمصانع زادت فى اسهمها دون زيادة مقابلة فى رأس المال ، وزورت فى حساباتها ، وتقاضت من

الحكومه أثمانا فادحة (١٢٣) . وكانت الاعتمادات التى يقرها البرلمان للجيش أو الأسطول يتحول جزء منها إلى جيوب الموظفين ورجال البلاط . وباع موظفى الدولة — حتى ولو كانت رواتبهم كافية تدفع بانتظام — الألقاب والعقود والبراءات والتعيينات وأوامر العفو ، إلى حد « بات معه الراتب الأصلى يشكل الجزء الأصغر مما يدخل إلى جيوبهم (١٢٤) » . وأثرى كبار رجال الحكومة مثل كلارندون ودانبى وسندرلند — أثروا فى سنوات قليلة واشتروا أو بنوا ضياعا لا تتناسب قط مع رواتبهم . وباع أعضاء البرلمان أصواتهم للوزراء ، بل حتى الحكومات الاجنبية (١٢٥) وفى القرارات انتزع مائتا عضو من صفوف المعارضة ، نتيجة لأن الوزراء اشتروا أصواتهم (١٢٦) . وفى ١٦٧٥ قدر أن ثلثى أعضاء مجلس العموم كانوا مأجورين من قبل شارل الثانى ، والثلث الباقى من قبل لويس الرابع عشر (١٢٧) حيث وجد العاهل الفرنسى أنه من الميسور أن يرشو الأعضاء ليصوتوا ضد شارل إذا حاد بشكل مزعج عن سياسة البوربون . أما شارل نفسه فكم من مرة تسلم أموالا طائلة من لويس ، حتى يلتزم الدوران فى فلك فرنسا فى السياسة أو الديانة أو الحرب ، وهكذا كان المجتمع الانجليزى أكثر المجتمعات استهتارا وفساداً فى التاريخ .

٦ — العادات

حاولت العادات أو أساليب الحياة هنا أن تعوض عن النقص فى الآداب — كما فى فرنسا — ، وأن تضفى كياسة متكلفة على الملابس المزركشة الأنيقة والأدب الفاجر ، والحديث الدنس . وكان شارل نفسه مثالا لأسلوب الحياة وتسرب إلى الطبقات العليا ما تجمل به الملك من ظرف ولطف ومجاملة وسحر وفتنة ، وترك كل أولئك بصماته على الحياة فى انجلترا . فتبادل الرجال القبلات عند اللقاء . وقبلوا يد المرأة إذا قدموا إليها . وفى لندن — كما كان فى باريس — استقبلت السيدات الرجال فى الفراش ، فكان هناك صراحة

منعشة واحتقار للنفاق فى الأدب وفى المسرح وفى البلاط . ولكن الصراحة أطلقت فيضاً من الخشونة على المسرح وفى الحديث اليومى . وكانت البذاءة فى انجلترا بغير مثال . وفى هذا كان شارل من بين الشواذ الخارجين على القاعدة ، حيث كان لا يتجاوز فى السباب « عبارته المفضلة Odds Fish وكان البيوريتانيون الباقون ينأون بأنفسهم عن فحش القول إلا إذا هاجوا خصومهم وسخروا منهم . أما السكويكرز فامتنعوا عن الحلف .

وبز الرجال النساء فى الأزياء الغربية ، من الشعر المستعار المضمخ بالمساحيق لأجل التبرج ، إلى الجوارب الحريرية والأحذية ذات « الابزيم » وكان الشعر المستعار بدعه أخرى مستوردة من فرنسا . وكان الفرسان والمختالون وغيرهم ، ممن كان شعرهم قصيراً ، أو ممن يخافون أن يخطئهم الناس على أنهم من البيوريتانيين ذوى الرؤوس المستديرة الذى كانوا يقصون شعورهم قصا قصيرا جدا ، تقول ان هؤلاء وهؤلاء كانوا يغطون قصر شعرهم بشعور أجنبية مستعارة . أما الرجال الذين أبيض شعرهم أو مال إلى الشيب فقد وجدوا فى الشعر المستعار وسيلة ناجحة لاخفاء أعمارهم . وكان كل الرجال تقريبا يحلقون اللحى آنذاك . وكان هذا الشعر المستعار يصلح من شأن بشرة الملك الأسبانية وأنفه الضخم . وجعل بيبز من أول شعر مستعار وضعه مسألة خطيرة ، ورثى لشعره المحبب إليه الذى كان لزاما أن يقص ليفسح الطريق « للباروكة — الشعر المستعار » ويزود بالشعر رأس إنسان آخر (١٢٨) ، وكان لزاما أن يتم تنظيف شعره المستعار من القمل فى أوقات منتظمة (١٢٩) — واختفى الآن طوق الرقبة المكشكش المتيبس الذى كان سائدا فى عهد اليزابث وجيمس الأول . كما اختفت السترة الضيقة والعباءة الطويلة ليحل محلهما الصدرية والمعطف . ووصلت الصدرية على أية حال إلى ربلة الساق . وكانت تشـــد إلى الجسم بحزام . وتوقفت « بنطلونات » الركوب عند الركبتين وتدلت السيوف إلى جوانب الأرستقراطيين أو الأغنياء . وساعد المخملات والمخرمات والأشرطة والأهداب وكشكشة الثياب

على استكمال الظرف والكياسة ، وربما استخدم الناس لتدفئة اليدين في الشتاء ، « الموقه » وهي غطاء أنبوبي طويل مكسو بالفراء ، يعلق في العنق .

أما نساء الطبقات العليا الأنيقات (طبقاً لآخر طراز) فكن يضمخن شعورهن بالمساحيق والعطور ، ويمشطنها في خصلات فوق جباههن ، وزدن عليهن خصلات مستعارة مرفوعة على أسلاك خفية ، وكسون قبعاتهن بالريش النادر ، ووضعن على خدودهن أو جبهاهن أو أذقانهن « لصوقات تجميلية » (و وهي قطع صغيرة جداً من حرير أسود يلصقها النساء كوسيلة لاخفاء العيوب أو للتبرج) ، زيادة في إغراء الرجال بمطاردتهن . وكشفن عن أكتافهن وعن أجزاء كبيرة من نهودهن ، وهكذا جلست لويز دى كيرووال أمام الرسام للى ليصورها وأحد نهديها عار تماما ، وبزتها نل جوين في ذلك . وكانت النساء تحجبن سيقانهن بشكل مغر . وتزايد الطلب على أدوات التجميل الأنيقة . فكانت المرأة بالفعل شيئاً معقداً استخدم الإنسان كل براعته في تشكيله وصنعه ، حتى صورتها احدى الروايات في فترة عودة الملكية ، في شيء من المغالاة والإغراق في الوصف .

« صنعت أسنانها عند ناظم اللآلىء (في بلاك فرايرز) ، وحواجبها من خيوط أو أسلاك مجدولة (في استراند) ، وشعرها في شارع « الفضة » ، فإذا آوت إلى الفراش نزعت عن نفسها كل ماعليها لتضعه في عشرين صندوقاً . حتى إذا نهضت من نومها ظهر اليوم التالى ، ركبت كل شيء في مكانه على جسمها من جديد . وكأنها ساعة حائط ألمانية ضخمة(١٢٠) » .

وكان التبذير واجباً حتمياً ، لقد أصبحت الحياة مظهرية متكلفة من جديد ، ومن ثم اقتضت تجهيزات معقدة مفصلة . وكان لزاما استئجار عدد كبير من الخدم . فكان منهم لدى والد ايفلين نحو خمسين وكان لدى بيبز طباخ ومديرة للمنزل ووصيفة وخادمة . وكانت وجبات الطعام مروعة

ضخمة . أنظر إلى غداء بيبز في ٢٦ يناير ١٦٦٠ قبل أيام الطيش والغرارة بزمن طويل :

« أعدت زوجتى غداء شهيا جدا : أعنى طبقا من « عظام النخاع » ، ونخذا من الضأن ، وقطعة من لحم العجل ، وصحنا من الطيور ، وثلاث دجاجات ، واثنى عشر زوجا من القنبر على طبق واحد ، وكعكة ضخمة محشوة بالمربى والفاكهة المطبوخة (تورتة) ، ولسان بقرة ، وطبقا من السمك الصغير « الأنشوجة » ، وطبقا من القريدس (الجمبرى) والجبن » .

وكانوا يتناولون الوجبة الرئيسية فى الساعة الواحدة . وكان المطبخ إنجليزيا . وعندما أوضح شارل الثانى لجرامونت أن الخدم كانوا يقدمون الطعام للملك ، وهم ركوع ، رمزا للاحترام والإجلال ، قال جرامونت (أوروى أنه قال) : « أشكر لجلالتكم هذا الإيضاح ،فقد ذهب تفكيرى إلى أنهم إنما كانوا يلتمسون المغفرة لتقديمهم طعاما رديئا(١٣١) » .

ولم يكن تناول المشروبات الروحية مجرد مظهر اجتماعى . فقلما كان الناس ، حتى الأطفال ، يشربون الماء(١٣٢) ، وكانت « البيرة » أيسر منالا من الماء الصالح للشرب . ومن ثم تناول كل الناس من مختلف الأسنان ، البيرة ، وأضاف الموسرون إليها الويسكى أو استوردوا النبيذ . وتردد معظم الناس على الحانات مرة واحدة فى اليوم ، وتناول كل الأفراد من جميع الطبقات الخمر من حين إلى حين .

ودخل البن من تركيا حوالى ١٦٥٠ . وحتى ١٧٠٠ كان معظم البن يستورد من اقليم مخا فى اليمن . وفى القرن الثامن عشر نقل الهولنديون زراعته إلى جاوة والبرتغاليون إلى سيلان والبرازيل ، والانجليز إلى جمايكا . وساعد استخدام القهوة فى التغلب على الخمول والكسل وفى شحذ الذهن ، على انتشارها وإقبال الناس عليها . وافتتحت لندن أول مقهى فيها فى ١٦٥٢ ، وماوافى عام ١٧٠٠ حتى كان بها ٣٠٠٠ مقهى(١٣٢) واتخذ كل فرد مهما كانت مكانته ، أحد المقاهى محلا مختارا لمقابلاته بانتظام ، حيث يلتقى بأصدقائه

ويستمع إلى آخر الأنباء والمخازى . وحاول شارل الثانى أن يحد من انتشار المقاهى ومن نشاطها باعتبارها مراكز لإهاجة المشاعر السياسية والمؤامرات ، ولكن شهوة الحديث والشراب والاستمتاع برائحة التبغ أحبطت مساعيه . ومن بعض المقاهى نشأت الأندية التى لعبت دورا فى سياسة القرن الثامن عشر ، ثم أصبحت آنذاك ملاذاً ومهرباً من أحادية الزواج ، واختلفت المقاهى عن الأندية التى ظهرت متأخرة عنها ، لا لمجرد أن القهوة كانت هى المشروب المفضل فيها ، بل لأن الحديث كان يلقى تشجيعاً فيها . كما أن مشاهير الأدباء مثل دريدن وأديسون وسويفت وجدوا فيها منابرهم (فى المقاهى) . كما أن حرية الكلام فى انجلترا انتعشت وازدهرت هناك .

وجاء الشاى إلى انجلترا من الصين حوالى ١٦٥٠ ، ولكنه كان غالى الثمن . إلى حد أنه لم يحل محل البن فى الحياة الانجليزية إلا بعد قرن من الزمان . وحسب بيبز أنه انما كان يقوم بمغامرة حين تناول أول فنجان من الشاى(١٣٤) . وفى نفس الوقت استورد حب الكاكاو من المكسيك وأمريكا الوسطى . وحوالى ١٦٥٨ استحدث شراب جديد بإضافة « الفانيليا » والسكر إلى الكاكاو . وأصبحت « الشكولاته » الناتجة عن هذا المزيج شراباً محبباً مألوفاً فى فترة عودة الملكية ، وكان يقدم فى كثير من المقاهى .

وفى تلك الآونة دخنت التبغ كل الطبقات ، بما فى ذلك كثير من النساء وبعض الأولاد ، فى أنابيب طويلة دوما . وظن النساء أن لهذا التبغ بعض الفائدة فى التطهير وقاية من الطاعون . وربما نشأت عن هذه الفكرة عادة « السعوط » فى تلك الأيام ، أى نشوق التبغ المسحوق .

والآن وقد تخلص الناس من كابوس البيوريتانية ، فقد ازدهرت الألعاب وأسباب التسلية واللهو . واستمتع الفقراء من جديد بمسرح العرائس وعروض السيرك وصراع الديكة ومطاردة الدببة والثيران ، وألعاب البهلوان على الحبال والمصارعة ، والشعوذة والملاكمة والسحر ، وانغمس الموسرون

فى الصيد بنوعيه : صيد النساء وصيد الحيوان . وظل شارل الثانى يمارس لعبة التنس حتى بلغ الثالثة والخمسين . أما ايفلين فقد أحب لعبة البولنج على الأرض الخضراء ، التى لا تزال منظراً محبباً إلى الانجليز حتى اليوم . وكانت لعبة الكريكت قد بدأت تكون وسيلة لقضاء وقت الفراغ فى الأمة بأسرها ولأول مرة فى ١٦٦١ يرد ذكر قطعة من الأرض مخصصة لهذه اللعبة ، ففى تلك السنة خططت حدائق فوكسهول على الضفة الجنوبية للتيمز ، وسرعان ما أصبحت منتجعاً أنيقاً على أحدث طراز . وافتتح شارل الثانى للجمهور متنزه سان جيمس . وأقيمت آنذاك حدائق هايد بارك حيث يقصد إليها فى الامسيات الظريفة ، علية القوم وعلى رأسهم الملك والملكة . إن « المجتمع » بدأ آنذاك يستشفى فى مياه باث المعدنية .

وتنقل الناس — فيما خلا أفقر الطبقات — فى عربات تجرها الجياد ، التى كانت قد بدأت تؤدى خدمة بريدية منتظمة لقاء بنس فى ١٦٥٧ ، ثم استخدمت لنقل الركاب فى مواعيد منتظمة فى ١٦٥٨ ، وكانت هذه العربات قد استخدمت لنقل السلع والتجارة داخل المدينة منذ ١٦٢٥ . وتنقل كبار الأغنياء فى عربات تجرها ستة جياد . وكانوا يصطحبون ثلاث فرق من الجياد ، لا لمجرد العرض وحب الظهور ، ولكن لتجر العربة فى الطريق الموحلة . وكانت الماشية المحلية فى بعض الأحيان تربط أمام الجياد لتشد العربة وتسحبها من المستنقعات العميقة . لقد كانت الطرقات مغطاة بالأتربة أو الأوحال . إن الحانات والانزال على جانبى الطريق بالخليط العجيب من نزلائها من سائقى العربات والمسافرين والممثلين والبائعين واللصوص والبغايا ، كانت تهيء السبيل أمام هؤلاء جميعا للاسهام فى الأدب فى انجلترا وهكذا كانت تتشكل انجلترا الخشنة الحبيبة الى النفس والمفعمة بالحيوية ، التى عرفها دكنز فى شبابه .

٧ — الدين والسياسة

استمر الصراع بين المذاهب الدينية ، وتجدد النزاع القديم بين الملك والبرلمان ، وسط تفتح الناس وتوافر أسباب الحياة لديهم وتكاثرهم . وأحزن الملك المبتهج أن يرى مجلس العموم ، بعدما أظهر من اذعان وامتثال فى شهر العسل ، يغار من سلطة الملك وقوته ، ويقبض عنه الاعتمادات . لقد كان الملك رقيق القلب ولكنه حازم صلب العود . فولى وجهه شطر ملك فرنسا ليحصل منه على قروض خاصة ، ووعد ، وواضح أنه رغب — فى التخفيف من ويلات الكاثوليك الانجليز ، كما وعد بتأييد سياسة لويس الرابع عشر ضد الأراضى الوطيئة ، وبيع ثغر دنكرك على القنال الانجليزى لفرنسا ، وكان جنود كرومول قد استولوا عليه . والحق أن الدفاع عنه كان يكلف أموالا طائلة ، وكان شوكة فى جنب فرنسا . فتخلى شارل عن دنكرك (١٦٦٢) مقابل خمسة ملايين فرنك بالاضافة الى اعانات سرية من البوربون ، استطاع بها لبعض الوقت أن يتجاهل أوليجاركية الأرض والمال التى تحكمت فى البرلمان آنذاك

ان هؤلاء الأوليجاركين ، على أية حال ، رأوا أن أموال الحكومة ينبغى أن تستخدم فى شن حرب مربحة أخرى ضد الهولنديين . ان نفس المنافسة على التجارة ومصايد الأسماك التى أدت الى الحرب الهولندية الاولى من قبل فى ١٦٥٢ هى التى عززت فكرة الحرب الثانية ١٦٦٤ . وقاوم شارل هذا الاتجاه الى الحرب ، لأطول مدة ممكنة ، لأنه آثر المحبة والمودة إيثارا . وكتب لأخته يقول : لم أر قط مثل هذه الشهوة الجامحة للحرب فى الريف والحضر كليهما ، وبخاصة لدى رجال البرلمان . إنى لأجد أننى الرجل الوحيد الذى لا يريد الحرب فى مملكتى (١٣٥) » .

لقد ساءت الأحوال . وحارب الأسطول الإنجليزى ببسالة على الرغم من سوء تغذيته وضآلة ملابسه وذخائره ، ولكنه خسر بقدر ما انتصر ،

وفى الوقت الذى حمى فيه وطيس الحرب ، ترك الطاعون والحريق لندن موحشة مقفرة ، كما ترك انجلترا مفلسة ، وفى أخريات عام ١٦٦٦ فتح الهولنديون باب المنازعات لعقد الصلح وسر الملك بقرب التوصل إلى تفاهم ، فأرسل مندوبين إلى بريدا . ووثوقا منه بأن الإتفاق كان وشيكا ، ومذ رأى أن أمواله على وشك النفاد ، فإنه نحى جانبا من أسطوله فى «مدواى» وصمح للبحارة بالاشتغال على السفن التجارية . فما كان من « دى روتر » إلا أن قاد أسطولا هولنديا إلى التيمز ومدواى ودمر معظم السفن الإنجليزية التى خلت من الرجال . ويقول بيبز أنه فى تلك الليلة « كان الملك يتناول العشاء مع ليدى كاسلمين عند دوقة مونموث ، وقد شغل الجميع إلى حد الجنون باصطياد فراشه مسكينة(١٣٦) » وعندما وصلت أنباء الهجوم إلى لندن ، دعى كل رجل مفتول العضلات إلى حمل السلاح . ولكن الهولنديين كذلك رغبوا فى الصلح ، لأن الفرنسيين كانوا قد أغاروا على إقليم فلاندرز . وأنهت معاهدة بريدا فى ٢١ يوليه ١٦٦٧ ، الحرب الهولندية الثانية بشروط لم يرتح لها الجميع .

وأضعف هذا الإخفاق التام وتلك الكوارث التى توالت على لندن ، مركز الملك إلى حد أن بعض الإنجليز فكروا فى خلعه . وطالب البرلمان بفرض رقابة برلمانية على مصروفات الحكومة . وأذعن الملك ، لأنه كان خالى الوفاض ، ولأن خطوة أخرى قد اتخذت نحو سيادة البرلمان الذى طالب كذلك بعزل كلارندون ، لسوء معالجته للشئون الخارجية . ولم يكن شارل يكره عزله ، لأن مستشاره كان يعارض تحركه فى إتجاه التسامح الدينى ، وينتقد إنغماسه مع الخليلات ، ولم يكتف مجلس العموم باستقالة كلارندون ، فقدم إقتراحا بمحاكمته بتهمة خضوعه الذليل لفرنسا . فاستمع كلارندون لنصيحة الملك ، ولاذ بالفرار إلى القارة . وكانت خاتمة محزنة قاسية لرجل حفل سجل حياته بالخدمات . وكرم الشيخ الهرم منفاه بتدوين أجل مؤلف تاريخى أخرجه الأدب الإنجليزى حتى ذاك اليوم . ووافته المنية فى روان

(على السين فى شمال فرنسا) فى ١٦٧٤ ، وهو فى الخامسة والستين .

وعين الملك شارل (١٦٦٨) خمسة رجال ليحلوا محل كلارندون : توماس كليفورد ، إرل آرلنجتون ، ودوق بكنجهام ، ولورد آشلى (الذى أصبح على الفور إرل شافتسبرى الأول) وإرل لودرديل . وكونت الحروف الأولى من أسمائهم لفظة « كابال Cabal » التى سميت بها الوزارة الجديدة . وكان كليفورد يعلن عن كثلكته، وكان آرلنجتون ميالا إلى هذا المذهب، وكان بكنجهام خليما فاسقا ، وكان شافتسبرى متسامحا شكاكا ،أما لودرديل فكان من « رجال المواثيق » السابقين ، وهو الذى فرض النظام الأسقفى بالنار والسيف ، على مواطنيه الاسكتلنديين . واستمع شارل إلى آرائهم أو مشوراتهم المتعارضة . ولكن تزايد ، على مر الأيام اعتماده على نفسه والتزامه برأيه الخاص .

وكان للملك هدفان أساسيان : تجديد الملكية المطلقة وإقامة الكاثوليكية ورفع شأنها فى إنجلترا . ونظر بعين الأمل إلى أن الذى سيخلفه على العرش هو أخوه الكاثوليكى جيمس ، وتبادل الرسائل مع زعيم اليسوعيين فى رومه ، واستقبل سرا مندوبا بابويا قدم إلى لندن من بروكسل(١٣٧) . وفى يناير ١٦٦٩ أبلغ أخاه وكليفورد وآرلنجتون ولورد آرندل أنه يرغب فى المصالحة مع كنيسة رومه ، وفى إعادة كل الإنجليز إلى المذهب القديم(١٣٨) . أن أخته هنريتا لم تكف يوما عن أن تحضه على أن يعلن للملأ فى جرأة وشجاعة عن ارتداده إلى الكثلكة .

وفى مايو ١٦٧٠ أرسل لويس الرابع عشر هنريتا إلى إنجلترا وفى معيتها عدد من الدبلوماسيين الدهاة ، ليعاونوها على ربط شارل بسياسة فرنسية كاثوليكية . وفى أول يونية ١٦٧٠ وقع كليفورد وآروندل وآرلنجتون باسم إنجلترا معاهدة دوفر السرية . ووافق ملك فرنسا على أن يدفع لشارل ١٥٠ ألف فرنك عند إعلان ارتداده إلى الكثلكة . وتزويده ، عند الاقتضاء ، بستة آلاف جندى تتولى فرنسا الانفاق عليهم ، وكان على شارل أن يدخل الحرب إلى جانب فرنسا ضد المقاطعات المتحدة عندما يطلب

إليه ذلك . على أن يتسلم من فرنسا ٢٢٥ ألف جنيه طيلة قيام الحرب ، وكان لشارل أن يستولى على بعض الجزر الهدلندية ويحتفظ بها ، كما كان عليه أن أن يؤيد مطالب لويس الرابع عشر فى أن يرث أسبانيا(١٣٩) . وامعانا فى خداع البرلمان والشعب فى إنجلترا ، بعث شارل بدوق بكنجهام إلى إلى باريس ليصوغ معاهدة صورية زائفة وقعت فى ٢١ ديسمبر ١٦٧٠ ونشرت على الملأ ، تعهدت فيها إنجلترا بالاشتراك فى الحرب ضد الهولنديين، ولكن لم يرد ذكر العقيدة الدينية .

وتلكأ شارل نحو خمسة عشر عاما فى اعلان تحوله الى الكثلكة . ولو أن أخاه أعلن تحوله إليها صراحة فى ١٦٧٠، ولكن ارل أرلنجوت نفسه، وهو الذى يؤيد الكاثوليكية ويميل اليها ، حذر الملك من اعلانه التحول الى هذا المذهب — كما فعل أخوه — قد يعجل بقيام ثورة . ومهما يكن من أمر، فان شارل تحرك نحو هدفه بأن أصدر فى ١٥ مارس ١٦٥٢ ، إعلان التسامح الثانى ، « لذوى الضمائر الرقيقة » يوقف فيه العمل » بكل قوانين العقوبات، أيا كانت، فى الأمور الكنسية، ضد المنشقين أو المتمردين والمخالفين وفى الوقت نفسه أخلى سبيل كل من كانوا أودعو السجون بسبب مخالفتهم لتشريعات البرلمان فى المسائل الدينية . وبذلك أطلق سراح مئات من المنشقين، من الكويكرز . وأرسل زعماؤهما وفدا عنهم لتقديم الشكر للملك . وصعق المشيخيون والبيوريتانيون حين رأوا أن الحرية الجديدة التى منحت لهم امتد نطاقها لتشمل الكاثوليك وأنصار تجديد العماد ، كما فزع الأنجليكانيون من «أن البابويين والفرق الدينية ذوات المذاهب المختلفة » يجتمعون علنا فى لندن . ولمدة عام كامل نعمت انجلترا بالتسامح الدينى أو شقيت به .

وفى ١٧ مارس ١٦٧٢ شنت انجلترا الحرب الهولندية الثالثة . وتلك مسألة كان الملك والبرلمان كلاهما على اتفاق فيها . واعتمد البرلمان ٠٠٠ر ٢٥٠ر ١ جنيه للحرب . على أن يسلم هذا المبلغ للحكومة على أقساط كان من الواضح أنها تعتمد على استرضاء الملك البرلمان وموافقته على تشريعاته الدينية وأعلن مجلس العموم « أن قوانين العقوبات فى المسائل الدينية لا يمكن ابطال العمل

بها الابقء دون يسنه البرلمان . وأرسل الى الملك طلبا بسحب اعلان التسامح ومذ كان لويس الرابع عشر يتوق الى أن يرى انجلترا صفا واحدا كالبنيان المرصوص ، تأييدا للحرب ضد الهولنديين ، فانه نصح الملك شارل بالغاء اعلان التسامح حتى تنتهى الحرب بالفوز ، وأذعن شارل ، وألغى الاعلان فى ٨ مارس ١٦٧٣ .

ومن المحتمل أنه فى هذا الوقت ، ترامت الى زعماء البروتستانت أنباء معاهدة دوفر السرية أو أشتموا رائحتها ورغبة فى الحيلولة دون تحول الملك الى الكثلكة ، سن المجلسان كلاهما « قانون الاختبار » الذى ينص على أنه يجب على كل أصحاب الوظائف المدنية والعسكرية فى انجلترا أن يقسموا علنا على تخليهم عن النظرية الكاثوليكية التى تقول بتحول خبز القربان والخمر الى جسد المسيح ودمه وأن يتناولوا الاسرار المقدسة طبقا للطقوس الانجليكانية وكافح كليفورد هذا المشروع بضراوة ، وبعد اقراره استقال من الحكومة ، وآوى الى ضيعته ، وما لبث حتى مات منتحرا كما يظن ايفلين . أما شافتسبرى فقد عضده بكل قوة ، وعزل من الوزارة ، فجعل من نفسه زعيما « لحزب الريف » الذى ناهض ، بعنف يقارب الثورة ، « حزب البلاط » الذى كان يؤيد الملك . وبذلك قضى على الوزارة « الكابال » (١٦٧٣) . وأصبح أرل دابى كبير الوزراء .

واعتزل جيمس كل مناصبه الحكوميه . وخفف من حدة المعارضة ضده بعض الشىء ، أنه على الرغم من أن زوجته الأولى إرتضت الكثلكة مذهبا من قبل ، فإن إبنتيها ـ الملكة مارى والملكة آن فيما بعد ـ نشأتا على المذهب البروتستانتى . لكن زواجه آنذاك (٣٠ سبتمبر ١٦٦٣) من أميرة كاثوليكية أثار ضده حملة من أقسى الإتهامات . تلك هى الأميرة مارى مودينا التى دمغت بأنها « كبرى بنات البابا » ، والمفروض أنها لا بد أن تنشىء أولادهما على الكاثوليكية . وفى الحال قدمت إلى البرلمان مشروعات قوانين تقضى بتنشئة أبناء الأسرة المالكة على المذهب البروتستانتى .

إن تطور الأحداث على هذا النحو أثار سخط انجلترا على الحرب ضد المقاطعات المتحدة وجعلها تحس بالمرارة ، فلو أن ملك انجلترا كان كاثوليكيا لانحاز إن عاجلا أو آجلا إلى جانب فرنسا وأسبانيا فى تدمير الجمهورية الهولندية تدميرا ، تلك الجمهورية التى لم تبد الآن منافسا تجاريا ، بل بدت معقل البروتستانتية فى القارة ، فإذا سقط هذا الحصن الحصين فكيف يتسنى للبروتستانتية الإنجليزية أن تثبت وأن تقاوم ؟ وفوض شارل عن طيب خاطر ، سير وليم تميل فى توقيع صلح منفرد مع الهولنديين . وفى ٩ فبراير ١٦٧٤ وقعت معاهدة وستمنستر التى أنهت الحرب الهولندية الثالثة .

٨ – (المؤامرة البابوية)

وأعقبت هذه الأحداث فترة كادت أن تتسم بالصفاء والتعقل . وحيث تسلم شارل من لويس الرابع عشر مبلغا اضافيا قدره ٥٠٠ ألف كراون ، فإنه عطل البرلمان المتعب إلى أجل ، وعاد إلى عشيقاته . ولكن السياسة لم تتوقف . فان شافتسبرى وغيره من زعماء المعارضة أسسوا فى ١٦٧٥ « نادى الوشاح الأخضر » . ومن هذا المركز نشر « حزب الريف » دعايته دفاعا عن البرلمان والبروتستانتية ضد ملك يتآمر مع فرنسا الكاثوليكية ، ووريثه الذى زف علنا إلى زوجة كاثوليكية . وفى ١٦٨٠ أطلق على رجال حزب الريف اسم Whigs ، وعلى المدافعين عن سلطة الملك اسم Tories(*) وبدا للملك شارل أن شافتسبرى « أضعف الرجال وأخبثهم(١٤١) » . وقال عنه بيرنت « أن علمه سطحى هزيل ، وأن غروره سخيف ، وأن

(*) من الواضح ن هويج اختصار لكلمة « هويجامور » ، وهذا اسم عصبة من الاسكتلنديين نشطت فى مقاومة شارل الأول (١٦٤٨) . أما تورى فهى لفظة أيرلندية معناها لص . وقد أطلقها تيتسى أوتس على « حزب البلاط » لأول مرة (١٦٨٠)(١٤٠) .

obeikandi.com

عقليته تافهة(١٤٢) » ولكن جون لوك الذى عاش مع شافتسبرى لمدة خمسة عشر عاما رأى أنه مناضل باسل جرىء عن الحرية المدنية والدينية والفكرية أو الفلسفية. وقال عنه بيرنت أنه يدين بالربوبية (مذهب طبيعى يقوم على العقل لا على الوحى) وقد يحق لنا أن نرتاب فى ديانته من قوله هو نفسه « ليس للعقلاء من الرجال إلا دين واحد » ، فلما سألته احدى السيدات ، وما هو ، كان جوابه « أن عقلاء الرجال لا يفصحون عنه قط »(١٤٣).

وخفت حدة التوتر الدينى بعض الشىء فى ١٦٧٧ ، حين تزوج وليم أورنج من مارى البروتستانتية كبرى بنات دوق يورك . فإذا ظل جيمس دون عقب ذكر ، فان مارى سوف تخلفه ، فى وراثة العرش ، ومن ثم ترتبط انجلترا بهولنده البروتستانتية بحكم المصاهرة ، ولكن فى ٢٨ أغسطس ١٦٧٨ مثل تيتس أوتس أمام الملك وأعلن أنه أكتشف « مؤامرة بابوية : ذلك أن البابا وملك فرنسا ورئيس أساقفة أرماج واليسوعيون فى انجلترا وأيرلنده وأسبانيا كان يدبرون قتل شارل وخلع أخيه ، وفرض الكاثوليكية فى انجلترا بحد السيف ، وأن ثلاثة آلاف سفاح سيتولون ذبح زعماء البروتستانت فى لندن ، وأن لندن نفسها — قلعة البروتستانتية — كانوا يدبرون احراقها عن آخرها .

كان أوتس ، وهو آنذاك فى التاسعة والعشرين من العمر ، ابن أحد أنصار تجديد العماد . وكان قد أصبح قسيسا أنجليكانيا ، ولكنه فصل من وظيفته الكنسية لسوء سلوكه(١٤٤) . ثم قبل — أو تظاهر بقبول — التحول إلى الكثلكة . وكان قد درس فى الكليات اليسوعية فى بلد الوليد (أسبانيا) وسانت أومر حيث فصل أيضا . آخر الأمر(١٠٥) . وفى نفس الوقت ، زعم الآن أنه كان قد اطلع على خطط الجزويت السرية لغزو انجلترا . واعترف أنه شهد فى ٢٤ أبريل ١٦٧٨ مؤتمرا يسوعيا فى لندن نوقشت فيه

وسائل قتل الملك. وعدد أسماء خمسة من النبلاء الكاثوليك ، على أنهم مشتركون فى المؤامرة هم : أروندل ، بويس ، بتر ، ستافورد ، بللاسيس. وعندما أضاف أوتس أن بللاسيس هذا كان سيمين قائدا عاما لجيش البابا ، ضحك شارل ساخرا ، حيث كان بلاسيس طريح الفراش بداء النقرس . وخلص الملك إلى أن أوتس لفق القصة كلها أملا فى الحصول على مكافأة ، وصرفه من حضرته .

ولكن المجلس المخصوص ارتأى أنه من الحكمة أن يفترض بعض الصدق فى الاتهامات ، واستدعى أوتس ليمثل أمامه فى ٢٨ سبتمبر . وخشى أوتس أن يزج به السجن ، فقصد إلى قاضى الصلح سيراد موند برى جودفرى وأودعه اعترافا خطيا مقرونا بقسم ، فصل فيه المؤامرة تفصيلا . وأصدر المجلس ، متأثرا بهذه الأدلة ، أوامره بالقبض على عدد من أنصار البابوية الذين تضمنهم اعتراف أوتس . وكان من بينهم أدوارد كولمان الذى كان لعدة سنوات (حتى عزل بأمر من الملك) سكرتير الدوقة يورك . وأحرق كولمان بعض أوراقه قبل القبض عليه ، ولكن الأوراق التى لم يكن لديه متسع من الوقت لاحراقها أوضحت أن كولمان والأب لاشيز قسيس لويس الرابع ، تبادلا من الرسائل مايعبر عن أمل الطرفين (شارل ولويس) فى أن تصبح انجلترا كاثوليكية فى أسرع وقت وفى هذه الرسائل اقترح كولمان أن يرسل إليه « لويس الرابع عشر أموالا ليكسب بها أعضاء البرلمان إلى جانب قضية الكثلكة ، ثم أضاف « أن نجاحنا سوف يكون ضربة شديدة للعقيدة البروتستانتية ، لم تتلق مثلها منذ نشأتها .... تلك هى تحول ثلاث ممالك . ومن ثم ، فربما كان فى هذا القضاء التام على هذه الهرطقة الوبيلة(١٤٦) إن اعدام كولمان لمعظم أوراقه حدا بالمجلس إلى الاعتقاد بأن كولمان على علم بالمؤامرة التى وصفها أوتس ، وربما كان شريكا فيها . واستنتج شارل نفسه من تلك الرسائل ، وجود مؤامرة حقيقية بشكل ما .

وفى ١٢ أكتوبر اختفى القاضى جودفرى ، وبعد خمسة أيام وجدت جثته فى أحد الحقول فى الضواحى . وبات من الواضح أنه قتل ، بيد عملاء مجهولين ، ولأسباب غير معروفة حتى الآن ، ولكن البروتستانت نسبوا القتل إلى الكاثوليك الذين كانوا يأملون فى الحيلولة دون نشر اعترافات أوتس . ويبدو أن هذا الحادث أكد الاتهامات . وفى هذا الجو الذى سادته الريبة وعدم الثقة ، الذى خلقته معاهدة دوفر السرية ، والخوف من اعتلاء جيمس عرش انجلترا ، كان طبيعيا أن تصدق انجلترا البروتستانتية آنذاك كل ماجاء على لسان أوتس من اتهامات ، وأن يعتريها نوبة من الجنون بدامعها أن حماية البروتستانية تتطلب اعتقال كل من أورد أوتس ذكرهم فى المؤامرة ، إن لم يكن اعدامهم .

وبدأت فترة من حكم الإرهاب امتدت لنحو أربع سنوات . وفر جيمس إلى الأراضى الوطيئة وتسلح أهالى لندن استعدادا لمقاومة أى غزو متوقع . ونصبت المدافع فى هويتهول . واتخذ الحراس أماكنهم فى الأقبية والسراديب تحت مبنى البرلمان بمجلسيه ليحولوا دون « مشروع بارود » آخر لنسف المبنى . وأقر البرلمان قانونا لطرد الكاثوليك من مجلس اللوردات ، وكرم أوتس بوصفه « مخلص الأمه » وكافأه بتخصيص معاش سنوى له قدره ١٢٠٠ جنيه لمدى الحياة ومنحه مسكنا فى قصر هويتهول . وسرعان ما ازدحمت السجون باليسوعيين والكهنه غير المنتسبين إلى رهبنات ، والكاثوليك العلمانيين الذين أورد ذكرهم أوتس أو وليم بدلو الذى ظهر مدعيا العلم بأشياء تؤكد صحه اتهامات أوتس .

وفى ٢٤ نوفمبر وضع أوتس أمام المجلس اتهاما جديدا مروعا ، ذلك أنه كان قد سمع الملكه تبدى موافقتها على قتل زوجها بالسم ، بيد طبيبها الخاص . وهنا أخذه شارل بهذه الكذبه الصارخه . وفقد ثقته فى أقواله كلها ، وأمر بالقبض عليه . ولكن مجلس العموم أمر بالإفراج عنه ، وبالقبض على ثلاثه من خدم الملكه . واقترح على اصدار بيان يطالب

بعزلها . وقصد الملك إلى مجلس اللوردات ودافع عن إخلاص زوجته وولائها ، وأقنع اللوردات بالامتناع عن الموافقة على بيان النواب . وفى ٢٧ نوفمبر حوكم كولمان وكاثوليكى علمانى آخر ، وثبتت إدانتهما وأعدما . وفى ١٧ ديسمبر أعدم ستة من اليسوعيين وثلاثة من الكهنة المنتسبين إلى رهبنات . وفى ٥ فبراير ١٦٧٩ شنق ثلاثة رجال بتهمة قتل جودفرى . وثبت فيما بعد براءة هؤلاء الاثنى عشر .

وتزايدت الحملات إقترابا من الملك ، ففى ١٩ ديسمبر ١٦٧٨ تلقى البرلمان من باريس أنباء تفيد أن دانبى كان قد تسلم من لويس الرابع عشر مبالغ طائلة من المال . ورفض الوزير إيضاح أنها كانت إعانات فرنسية للملك . ووجه مجلس العموم الإتهام إلى الوزير . وخشى الملك الحكم على مستشاره الملكى بالاعدام ، فحل ، فى ٢٤ يناير ١٩٧٩ « برلمان الفرسان » الذى كان قد التأم على فترات متقطعة ، لمدة ثمانية عشر عاما ، أى أنه كان أطول من « البرلمان الطويل » .

ولكن برلمان « الهويج » الذى اجتمع فى ٦ مارس ، كان فى عدائه للكاثوليكية وللملك ، أشد إندفاعا وتحمسا من البرلمان السابق . واتهم مجلس العموم دانبى بالخيانة العظمى ، ولكن اللوردات أنقذوه بزجه فى سجن لندن ، حيث قضى فيه ، فى هدوء وقلق ، السنوات الخمس المضطربة التالية . وبناء على نصيحة سير وليم تمبل ، عين شارل مجلسا جديداً من ثلاثين عضوا ، بينهم — رغبة فى تخفيف حدة المعارضة — زعيما حزب الهويج : شافتسبرى وجورج سافيل ، مركيز هاليفاكس وبناء على توصية الملك اختير شافتسبرى رئيسا للمجلس . وسعيا وراء المزيد من تهدئة العاصفة ، عرض الملك على البرلمان تسوية بديلة لاستبعاد أخيه عن العرش : ألا يسمح لأى كاثوليكى بمقعد فى البرلمان أو بتولى منصب قيادى يتطلب الثقة ، وألا يكون للملك حق التعيين فى المناصب الدينية ، وأن يخضع تعيين القضاء لموافقة البرلمان . وان يكون للبرلمان حق الرقابة والاشراف

على القوات البرية والبحرية(١٤٧). ولكن البرلمان أحس بشيء من الارتياب وعدم الثقة فى موافقة جيمس على مثل هذه الاتفاقية. وفى ١١ مايو قدم شافتسبرى نفسه أول مشروع قانون لاستبعاده (جيمس) فى عبارة واضحة جلية لا لبس فيها « إسقاط حق دوق يورك فى وراثة التاج الامبراطورى لهذه المملكة ». وكان موضع فخر وشرف للبرلمان أنه فى ٢٦ مايو توسع فى حق التحقيق فى قانونية الاعتقال: بمعنى أنه يمكن الإفراج بكفالة عن أى سجين، فيما عدا المتهمين بالخيانة أو بجناية، وفى مثل هذه الحالة ينبغى أن يحاكم المتهم فى الدورة التالية للمحكمة، وألا أطلق سراحه. وكان على فرنسا أن تنتظر ١١٠ سنوات حتى تنعم بضمانات مماثلة ضد الاعتقالات التعسفية. وفى ٢٧ مايو خشى الملك إقرار « مشروع قانون الاستبعاد » فحل البرلمان.

ولم يكن حق التحقيق فى قانونية الاعتقال مجديا بالنسبة لأنصار البابويه الذين إتهمهم أوتس، لأنهم حوكموا مع شيء من التباطؤ، حتى إذا أدينوا بالخيانة أعدموا فى سرعة غاضبة، وحشد الكثير منهم إلى المقصلة أو ساحة الإعدام طيلة عام ١٦٧٩، وكانت محاكمتهم سريعة جداً لأن القضاة الذين روعتهم صيحات الجموع المتعطشة للدماء خارج المحكمة، أدانوا كثيرا من المدعى عليهم دون تمحيص الأدلة أو مواجهة الشهود بعضهم ببعض. وهب الشهود المزيفون الذين أغراهم ما أغدق على أوتس من مكافأة، وكأنما هبوا من مرقدهم، وأقسموا بأغلظ الأيمان على ما يقولون: فروى أحدهم أن جيشا من ثلاثين ألفا كان قادما من أسبانيا، وقال آخر أنهم وعدوه بخمسمائة جنيه وبضمه إلى قاعة القديسين إذا هو أطاح برأس الملك، وذكر شاهد مزيف ثالث بأنه كان قد سمع أحد رجال المصارف الكاثوليك الأثرياء يأخذ على نفسه عهد بأن يقوم بمثل هذا العمل(١٤٨). ولم يسمح للمتهم بأى محام أو مستشار قانونى. ولم يبلغ بما نسب إليه إلا فى يوم المحاكمة. وكان يفترض أنه مذنب حتى يستطيع أن يثبت براءته(١٤٩). وحتى تسهل

بالإدانة أحيوا قانونا قديما كان معمولا به فى عهد اليزابث : وهو أن وجود أى كاهن فى إنجلترا جريمة عقوبتها الإعدام . وكانت الجموع المحتشدة حول مبنى المحكمة تصرخ وتولول فى وجوه شهود الدفاع استهجانا ، وتقذفهم بالحجارة ، ويهتفون ويهللون فرحا عند إعلان الحكم بالأدانة(١٥٠) .

فت كل هذا فى عضد شارل ، وكان إمتحانا قاسيا للملك الذى غمرته يوما البهجة والفرح ، والذى رأى الآن كل آماله تنهار ، وسلطاته تنتقص ، وزوجته تعانى الاذلال ، وأخاه يبوء بالاحتقار والازدراء وينحى . وفى ذروة العاصفة خر شارل مريضاً مرضا خطيراً حتى توقعوا موته بين ساعة وأخرى . واستدعى هاليفاكس جيمس من بروكسل ، ولكن زعماء الهويج أمروا الجيش بالحيلولة دون عودته . واتفق شافستبرى ومونموث ولورد رسل ولورد جراى على أنهم — فى حالة وفاة شارل — سيتزعمون عصيانا مسلحا لمنع أخيه من إرتقاء العرش(١٥١)، وتيسر لجيمس أن يدخل البلاد متنكرا، وشق طريقه إلى جوار الملك . وتظاهر شارل بأنه أبل من مرضه ، وابتسم للمخاوف التى ساورت حتى أعداءه الذين توقعوا موته . والحق أنه لم يبرأ من علته قط .

وبقى العداء للكاثوليك على أشده حتى تخبط أوتس أثناء محاكمة سير جورج ويكمان طبيب الملكة . ففى شهادته أمام المجلس كان قد برأ الطبيب ، ولكنه فى المحاكمة اتهمه بتدبير دس السم للملك . واكتشف هذا التناقض فى الأقوال قاضى القضاة سكروجز الذى سبق له أن تولى محاكمة الكاثوليك بمنتهى الشدة . وصدر الحكم ببراءة ويكمان ، ومن ثم صارت شهادة أوتس تسمع فى مزيد من التدقيق ، وامتنع الشهود المزيفون الذين كانوا يعززون أقواله ، عن مساندته . وكان إعدام أوليفر بلنكت رئيس أساقفة آرماج الكاثوليكى ، آخر إجراء تم فى حركة الارهاب التى قامت ضد الكاثوليك (١ يوليه ١٦٨١) .

ولما خفت وطأة الرعب والانفعال تأكد لدى بعض عقلاء الرجال أن

أوتس ، عن طريق الريب التي لا تستند إلى أساس من ناحية ومن ناحية أخرى عن الأكاذيب ، عجل بإرسال كثير من الأبرياء إلى الموت قبل الأوان . وانتهوا إلى أنه لم يكن ثمة تدبير لقتل الملك أو ذبح البروتستانت أو إحراق لندن . ولكنهم أحسوا بأنه كانت هناك مؤامرة حقيقية ، كاثوليكية ، وأن لم تكن « بابوية » : تلك هي أن أركان الحكومة دبروا ، أو راودهم الأمل ، بمساعدة أموال (أو جنود إذا لزم الأمر) من فرنسا ، أن يقضوا على عجز الكاثوليك وعدم أهليتهم الشرعية في إنجلترا ، ويحولوا الملك إلى الكاثوليكية ، ويثبتوا حق أخيه الذي تحول فعلا في إرتقاء العرش ، ويستخدموا كل الوسائل لتدعيم الكثلكة دينا للدولة ، وفي النهاية للشعب . والواقع أن كل هذا تضمنته معاهدة دوفر السرية التي وقعت من قبل في ١٦٧٠ وكان شارل قد تراجع عن هذه الإتفاقية . ولكن رغباته لم تتبدل ولم يتخل عنها قط ، وظل مصمما على أن يمتلي أخوه عرش إنجلترا ويكون ملكا عليها .

٩ ـ خاتمة الملهاة

أما شافتسبري فقد وطد العزم على نقيض ما يبتغيه الملك . لقد اعترف كولمان أثناء محاكمته بأن جيمس علم أمر المراسلات المتبادلة بينه وبين الأب لاشيز ، وأقرها(١٥٢) . وأحس شافتسبري بأن ارتقاء جيمس عرش انجلترا لابد أن يحقق المرحلة الأولى من « المؤامرة البابوية » وعرض أن يساند شارل ويقف إلى جانبه إذا هو طلق الملكة العقيم وتزوج من بروتستانتية قد ينجب منها ابنا بروتستانتيا . وأبى شارل أن يدع كاترين دي براجانزا تكرر الدور الذي لعبته كاترين أوف أراجون . فولى شافتسبري وجهه شطر دوق مونموث الإبن غير الشرعي للملك ، الذي لم يغفر قط لأبيه خداعه وإبعاده عن العرش بتقصيره في الزواج من أمه . ونشر شافتسبري فكرة أن شارل كان بالفعل قد تزوج من لوسي والتر ، وأن دوق مونموث

هو الوريث الشرعى للعرش . فما كان من شارل إلا أن كذب هذا بإعلانه أنه لم يتزوج قط إلا من كاترين أوف براجانزا ، وإذ وجد أن شافتسبرى خصم عنيد ، فإنه أقصاه عن المجلس المخصوص (١٣ أكتوبر ١٦٧٩) .

وأثناء توالى الأزمات والمحن على هذا النحو كاد شارل أن يبدل من خلقه ومن شخصيته ، فودع حياة البهجة والدعة . وباع اسطبلاته ، وانصرف بكليته إلى الإدارة والسياسة ، وحارب أعداءه بتراجع محكم التدبير ، حتى جاوزوا حدودهم فانتهوا إلى الفشل إن الملك فى سنواته الخمس الأخيرة أبدى من قوة العزيمة والمقدرة ما أدهش حتى الأصدقاء . وإذ عاودته الطمأنينة والثقة فقد دعا برلمانه الرابع .

واجتمع البرلمان فى ٢١ أكتوبر ١٦٨٠ . وأقر مجلس العموم فى شهر نوفمبر « مشروع قانون الاستبعاد » الثانى ، وقدم إلى مجلس اللوردات . وهنا تحول هاليفاكس الذى كان يصوت حتى تلك اللحظة إلى جانب « حزب الهويج » نقول تحول الآن إلى جانب الملك ، وبدأ يحظى بلقب « القلب الحول » ويزهو ويختـال به . إنه كان يبغض جيمس ويرتاب فى الكاثوليكية ، ولكنه اتفق مع شارل فى ضرورة الإبقاء على مبدأ الملكية الوراثية . كما خشى أن يقود شافتسبرى انجلترا إلى حرب أهلية ثانية(١٥٣) . ومن ثم فإنه بفصاحته ومنطقه فى المناقشة الطويلة التى جرت بشأن « مشروع قانون الاستبعاد » أقنع اللوردات برفض المشروع . ورد مجلس العموم على هذا ، برفض الموافقة على أية اعتمادات مالية للملك ، وحظر على التجار وأصحاب المصارف . اقراضه أية أموال . وحاكم هاليفاكس وسكروجز وفيكونت ستافورد وهو أحد اللوردات الخمسة المعتقلين فى سجن لندن . وحكم على ستافورد بالإعدام بناء على شهادة أوتس ، وضرب عنقه فى ٧ ديسمبر . وفض الملك البرلمان فى ١٨ يناير ١٦٨١ .

وبدلا من أن يضحى شارل بأخيه بسبب حاجته إلى المال ، اعتزم شارل أن يحول الحكومة بأن يصبح من جديد أسيرا للملك الفرنسى لويس الرابع

عشر . وارتضى أن ينظر فى شىء من التجلد ورباطة الجأش إلى سياسة فرنسا العدوانية ، مقابل ٧٠٠ ألف جنيه(١٥٤) — وهو مبلغ يغنيه لمدة سنوات عن إعانات البرلمان واعتماداته . فلما أحس بالقوة دعا برلمانه الخامس. ولكى يحرمه من تأييد جمهور لندن وقوات الطوارىء فيها ، فإنه ، أى الملك أمر باجتماعه فى أكسفورد . وهناك إلتقى الجمعان مدججين بالسلاح : شارل مع عدد كبير من حرسه ، وزعماء الهويج مع أتباعهم حاملين السيوف والمسدسات رافعين أعلاماً كتب عليها « لا بابوية ولا عبودية » وأقر مجلس العموم فى الحال « مشروع قانون الاستبعاد » الثالث ، ولكن قبل أن يصل المشروع إلى مجلس اللوردات حل شارل البرلمان (٢٨ مارس ١٦٨١) .

وتوقع كثير من الناس أن يلجأ شافتسبرى الآن إلى الحرب الأهلية . أما الرأى العام الذى استرجع فى ذاكرته أحداث ١٦٤٢ — ١٦٦٠ فقد تحول عنه وانحاز إلى صف الملك . ودافع رجال الكنيسة الأنجليكانية دفاعا مجيدا عن حق جيمس الكاثوليكى فى ارتقاء العرش . وعندما حاول شافتسبرى أن يعيد تنظيم صفوف النواب المشتتين فى ميثاق ثورى(١٥٥) ، أمر شارل باعتقاله ، ولكن هيئة المحلفين برأته (٢٤ نوفمبر) وعلى الرغم من أنه كان آنذاك مريضا بدرجة لا يكاد معها يقوى على المشى، فإنه انضم إلى دوق مونموث فى ثورة علنية(١٥٦) . وأمر الملك باعتقالهما كليهما وهرب شافتسبرى من سجن لندن ، وفر إلى هولندة ، وهناك وافته منيته (٢١ يناير ١٦٨٣) بعد أن أنهكته الأحداث ، ولكنه خلف وراءه صديقه لوك ، ليتابع فى مجال الفلسفة ، المعركة التى لم يكتب لها لبعض الوقت التوفيق فى ميدان السياسة .

وصفح شارل عن مونموث ، ولكنه لم يغتفر قط للمحلفين فى لندن تبرئتهم لشافتسبرى . والآن وقد تحول الملك النشوان إلى شخص آخر ، وكان متطرفا فى تحوله هذا ، فإنه عقد العزم على تحطيم استقلال المدن التى ترعرت فيها فكرة الهويج (الأحرار) بل الفكرة الثورية ، فأمر

بمراجعة المواثيق والعهود والقوانين التى هيأت للأجهزة البلدية الخروج على الارادة الملكية ، ووجد بالفعل فى هذه بعض النقص والخلل من الوجهة التشريعية ، فأعلن إلغاءها جميعا ، وصدرت عهود وقوانين جديده تنص على أن يكون للملك حق الاعتراض وحق عزل كل الموظفين الذين ينتخبون لهذه الهيئات البلدية (١٦٨٣) . وخضعت الآن حرية الكلام وحرية الصحافة لقيود جديدة ، وبدأت موجة اضطهاد المنشقين — لا الكاثوليك : لأن معظم المنشقين كانوا من الأحرار (الهويج) . وفى اسكتلنده قاد جيمس حملة التعذيب بنفسه ، وبدا أن انتصار حقوق الملك على اصلاحيات البرلمان بات انتصارا ساحقا كاملا ، وأن انجازات الثورة الكبرى كان واضحا أنه ينبغى التضحية بها فى نكسة أو رد فعل تؤيده أمة تخشى تجدد الحرب الأهلية . وعكس هاليفاكس شعور البلاد حين تخلى عن شافتسبرى ، وانحاز بحكمته المعتدلة البعيدة عن التطرف إلى جانب الملك ليكون فى خدمته (١٦٨٢ — ١٦٨٥) فكان حامل الأختام الملكية .

وقام أتباع شافتسبرى بمحاولة أخيرة . ففى يناير ١٦٨٧ ، اجتمع دوق مونموث وإرل اسكس وإرل كارليل ، ووليم لورد رسل وألجرنون سدنى فى دار جون همدن (حفيد بطل الحرب الأهلية) ورسموا الخطط لتطويق جيمس والتغلب عليه ، وقتل شارل إذا لزم الأمر . وراود سدنى أمل التقدم إلى خطوة أبعد ، وهى إعادة إقامة الجمهورية الانجليزية . وكان حفيد أحد أخوة سير فيليب سدنى « رئيس الفروسية » ، وحارب فى صف البرلمان أثناء الحرب الأهلية وجرح فى مارستن مور • وعين عضوا فى اللجنة التى شكلت المحاكمة شارل الأول ، ولكنه رفض العمل بها على إعتبار أن الشعب لم يمنح اللجنة سلطة محاكمة الملك . وألقى نفسه فى القارة حين عادت الملكية ، فظل بها ، مشغولا بدراساته وأبحاثه ، وتدبير المؤامرات ضد شارل الثانى . وفى الحرب الهولندية الثانية حرض الهولنديين على غزو إنجلترا ، وعرض خدماته على الحكومة الفرنسية ليشعل نار الثورة فى إنجلترا إذا أمدته الحكومة الفرنسية بمائة

ألف كروان(١٥٧) . وفى ١٦٧٧ سمح له شارل بالعودة ليشهد وفاة والده ، وبقى فى إنجلترا وانضم إلى « حزب الريف » (الأحرار ، الهويج) . وفى كتابه « مقالات عن الحكومة » (الذى كتب ١٦٨١ ولم ينشر إلا فى ١٦٨٨) دافع سدنى عن المبادىء شبه الجمهورية ، واستبق لوك فى مهاجمته دفاع فلمر عن حقوق الملوك الإلهية ، وأكد حق الشعب فى محاكمة الملوك وخلعهم . ومن الواضح أن سدنى ورسل ، كليهما تسلما أموالا من الحكومة الفرنسية التى كان يهمها أن يظل شارل مشغولا بمشاكله الداخلية(١٥٨) .

وصح عزم « مجلس الستة » على أسر الملك . وكان معروفا أنه سيشهد سباق الخيل فى شهر مارس فى نيوماركت . وكان لابد له ، لدى عودته إلى لندن من أن يمر « براى هاوس » فى هودزدون فى شمال المدينة ، فتقرر أن تسد عربة محملة بالحشائش الجافة الطريق فى هذا المكان ، ومن ثم يمكن أسر الملك وربما أسر أخيه معه كذلك ، حيين أو ميتين . ولكن فى ٢٢ مارس شب حريق فى ميدان السباق ، وانتهت المسابقات قبل موعدها المقرر بأسبوع ، وعاد الملك سالما إلى لندن قبل أن يعد المتآمرون عدتهم . وخشى أحدهم افتضاح الأمور وودّ الأمل فى العفو ، فأفضى بسر المؤامرة إلى الحكومة (١٢ يونية) . وقبض على كارليل فأكد الاعتراف وعفوا عنه . واحتج مونموث بأنه برىء ، وعلى الرغم من أن شارل علم علم اليقين أن ابنه كاذب فيما يقول ، فإنه ألغى أمر إعتقاله . أما رسل فحوكم وثبتت إدانته وأعدم (٢١ يوليه ١٦٨٣) . وانتحر اسكس فى السجن . وعندئذ قال الملك « ما كان له أن يقنط من الرحمة ، فإنى مدين له بحياة(١٥٩) » فقد مات أبوه من قبل من أجل شارل الأول . وشنق عدد من صغار المشتركين فى « مؤامرة راى هاوس » وأخذ سدنى بجرم لم يقم عليه دليل كاف من الناحية القانونية ، ودافع عن نفسه دفاعا مجيدا ، وقابل الموت بصدر رحب (٧ ديسمبر) . وكان شعاره « يدى هذه هى عدوة الطغاة » . ولكنه كان قد اختار سيفا

ذا حدين . ونطق وهو على المشنقة بكلمات تستحق الذكر : « إن الله ترك للشعوب حرية إقامة الحكومات كما تشاء(١٦٠) » . ورفض أية طقوس دينية قائلا أنه فى سلام مع الله فعلا .

لقد انتصر شارل ولكنه كان مشرفا على النهاية ، ونعم ، مع جهد مضن ، بشعبية جديدة ، وكانت إقتصاديات إنجلترا قد ازدهرت فى عهده ، أما الآن ، والبلاد تتطلع إلى هدوء سياسى ، فقد ركنت إلى ملك كان يمثل بقاء الأمة ونظامها ، ولو كان معنى هـذا ، لفترة من الزمن « ملكا كاثوليكيا » . وغفرت إنجلترا لشارل أخطاءه ، حين رأته ينهار ويذبل قبل الأوان . واتفقت معه ، بعض الشىء ، على أن الحكومة الإنتخابية ـ لا الملكية الوراثية ـ مدعاة للاضطراب والهرج اللذين يصاحبان انتخاب الحاكم عندما يحين موعده . واحترمت فيه اخلاصه لأخيه ، حتى فى الوقت الذى حزنت فيه لنتيجة هذا الإخلاص ، ورأت جيمس منتصرا ، ورأته ثانية قائدا أعلى للأسطول ، يتعقب أعداءه ليثأر منهم . وفى يناير ١٦٨٥ رفع جيمس دعوى مدنية ضد تيتس أوتس يطالبه فيها بتعويض قدره مائة ألف جنيه . وكسب جيمس القضية . ولما كان أوتس عاجزاً عن الدفع فقد أودع السجن . وقال شارل فى حزن بالغ « لست أدرى ماذا سيفعل أخى عندما ينتهى الأجل وأفارق الحياة . أخشى ما أخشاه أنه عندما يأتى ليضع تاج الملك على رأسه ، أن يرغم على العودة من حيث أتى . على أنى سأعنى العناية كلها بأن أترك له مملكة يسودها السلام ، وكل أملى أن يحتفظ لها بهذا السلام لأمد طويل . ولكن هذا يثير كل مخاوفى ، ولست أؤمل فيه كثيرا ، بل لا يكاد أمل يدور بخلدى أنه سيتحقق(١٦١) » . ولما اعترض جيمس على تجول شارل حول لندن راكبا عربته دون حرس ، أمره شارل أن يهدىء من روعة : « لن يقتلنى أحد ليجلسك أنت على العرش(١٦٢) » .

ولا بد أنه اعترض على الأطباء . فإنه فى ٢ فبراير ١٦٨٥ أصيب بحالة تشنج واضطراب شديدة ، شوهت وجهه ، وجعلت فمه ، يرغى ، وأجرى

ه دكتور كنج عملية فصد بشق أحد الأوردة . وكان لهذا نتيجة طيبة . ولكن مرافق الملك استدعوا ثمانية عشر طبيبا آخرين ليشخصوا الداء ويصفوا الدواء . وطيلة خمسة أيام فى عذاب أليم ، استسلم الملك للحملة التى جردوها عليه مجتمعين . فبزلوا أوردته ، ووضعوا كئوس الحجام إلى كتفيه . وقصوا شعره ليزيلوا البثور والقروح من جلدة رأسه ، ووضعوا على باطن قدميه لصوقا من القاروروث الحمـــام . وقال مؤرخ طبيب « ولكى يزيلوا النزوات من مخه نفخوا فى أعلى خياشيمه الخربق (وهو عشب جميل الزهر) ثم جعلوه يعطس . ولكى يتقيأ صبوا فى حلقة الأنتيمون وسلفات الزنك . ولتنظيف أمعائه أعطوه مطهرات قوية ، وعددا من الحقن الشرجية فى تعاقب سريع(١٦٣) » .

وتمادى الملك الذى يحتضر زوجته التى عاشت فى شقاء عقيم ، ولم يكن يدرك أنها جاثية فى أسفل الفراش تدلك قدميه . وفى ٤ فبراير قدم له بعض الأساقفة الأسرار الدينية الأخيرة وفقا للطقوس الأنجليكانية ، ولكنه رجاهم أن يكفوا ، ولما سأله أخوه ، هل يريد كاهنا كاثوليكيا أجاب « نعم ، نعم ، من كل قلبى(١٦٤) » فأرسلوا فى طلب الأب جون هدلزتون الذى كان قد أنقذ حياة شارل فى معركة وورسيستر ، كما أن شارل كان قد أنقذ حياة الأب جون أيام « الارهاب البابوى » وأعلن شارل إعتناقه للمذهب الكاثوليكى ، واعترف بذنوبه وخطاياه ، وعفا عن أعدائه ، وطلب المغفرة من الجميع . ومسحوه مسحا تاما بالزيت المقدس ، وتلقى الأسرار المقدسة . وطلب الصفح والعفو ، بخاصة من زوجته ، ولكنه كذلك أوصى أخاه خيرا بالسيدة لويز كيروال وأبنائه (منها) « لاتترك تلك المسكينة تتضور جوعا(١٦٥) » واعتذر لمن حوله عن أنه قضى مثل هذا الوقت الطويل بشكل غير معقول ، وهو يعانى سكرات الموت(١٦٦) .

وعند ظهر اليوم السادس من فبراير ، كان دوق يورك ملكا .